



القسم الثالث مقارنتان



أديب إسحق : اليونان والرومان

- ١ -

بدأ الأديب السوري أديب إسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٤ م) حياته التعليمية القصيرة في مدرسة الآباء الإلعازيين في دمشق . وفيها تعلم الفرنسية إلى جانب العربية . حقاً إنه لم يستمر في التعليم طويلاً - إذ غادر المدرسة في الحادية عشرة ، لظروف عائلية ، ليعمل^(١) - لكن الواضح أنه لم يتوقف عن القراءة بالفرنسية وتنمية معرفته بها حتى الإجازة ، بدليل أنه عرب عنها مسرحية «أندروماك» لراسين ، و«شارك صديقه سليم النقاش في تأليف بعض الروايات وتعريب بعضها الآخر»^(٢) ، وكان ذلك ما بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة من عمره القصير . واتصال أديب بالثقافة الفرنسية - أو، لنقل : بالثقافة الغربية عبر اللغة الفرنسية - بارز أشد البروز في مسيرته الفكرية كلها ، بل إنه سافر إلى باريس ، باختياره أو منفياً ، بعد إغلاق صحيفته - لسان حال جمال الدين الأفغاني وجماعته - « مصر » و « التجارة » في آخر عام ١٨٧٩ م ؛ ف قضى فيها ما يقرب من عامين^(٣) ، قبل أن يعود إلى بيروت ، فمصر ، ثم بيروت مرة أخرى ، ليقضي فيها نخبه .

- ٢ -

وفي أثناء إقامته الأولى في بيروت (١٨٧١ - ١٨٧٦ م) شارك أديب في جمعية «زهر الآداب» ثم تولى رئاستها ، وألقى فيها الخطب والمحاضرات والقصائد^(٤) .

وفي رحاب هذه الجمعية ألقى أديب إسحاق « الخطبة » التي نحن بصدددها الآن ، عن «اليونان والرومان» ، والمنشورة في الطبعة الأولى من مختاراته التي جمعها جرجس ميخائيل نحاس ، بعنوان « الدرر » (١٨٨٦ م) ؛ وعنها أخذت النشرات اللاحقة ، سواء للدرر ، أو نشرة ناجي علوش : وفي المصدرين اللذين بين يدي لم يُذكر تاريخ «الخطبة» على التحديد ، وإن نص ناجي علوش على أنها « أول خطبة ألقاها في جمعية زهرة [كذا] الآداب »^(٥) ؛ أي أن تاريخها - تقريباً - حوالي ١٨٧٥ أو ١٨٧٦

(أى بين التاسعة عشرة والعشرين من عمره) ؛ لأنه يقول في بداية «خطبته» : «وما هي إلا تجربة مبتدئ يعرضها لإخوانه ، ويستزها عن غيرهم من الناقدين»^(٦) .

١ - ٢

وعلى الرغم أن « الخطبة » تغلب عليها روح المعرفة التاريخية ؛ أي أنها ليست مخصصة للأدب، فإننا سنحاول التقاط « مقارناته » الثقافية العامة بين الحضارتين .
لا بد أن تساؤلأ رواد الذين حضروا هذه « الخطبة » أو بعضهم على الأقل ؛ مفاده: لماذا اليونان والرومان ؟ فكانت محاولة الإجابة مدخل إسحق إلى موضوعه ؛ إذ - عنده - أنه

« لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتاريخ سائر الأمم ، في جميع الأزمنة ، لكان أوسع منها مجالاً ، وأوفر مادة ، وأكثر انتشاراً . ولا بدع في ذلك ؛ فإن هاتين الأمتين معدودتان بمنزلة الأصل أو الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم إلى الغرب ؛ حتى أن العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الأوربية ، ولا يزال كذلك في الكثير منها الآن »^(٧) .

والفكرة الأولى - لاشك - غامضة ؛ لأن الحماسة فيها غلبت على التعبير فذهبت بـ «علميته» ! فلا جدال في أنه من المبالغة الشديدة أن نقول إن تاريخ اليونان والرومان «أوسع مجالاً ، وأوفر مادة ، وأكثر انتشاراً» من تواريخ « سائر الأمم ، في جميع الأزمنة » ؛ فما هذا « المجال » الأوسع ، وما هذه « المادة » الأوفر ، وما هذا « الانتشار » الأكثر ؟ إن الحماسة للموضوع - ولن نقول لليونان والرومان ، أو للثقافة الغربية الحديثة القائمة على ثقافتيهما - تسلب حضارات عريقة - كالمصرية القديمة ، وحضارات الشرق في بلاد الشام والعراق والهند والصين ، ثم الحضارة الإسلامية .. إلخ - حقوقها في « اتساع المجال » و « وفرة المادة » و « سعة الانتشار » . لكنها حماسة الشباب ، وقلة الخبرة ، كما أشار هو نفسه !

أما الفكرة الثانية ، التي تشير إلى أن الثقافة الغربية الحديثة قائمة على التراث اليوناني والروماني القديم ، فلاشك في وجاهتها ، بعامة ، مع التسامح في غمطه حق الحضارة العربية الإسلامية في « وصول التمدن والعلوم إلى الغرب » . بل في وصول حتى التراث اليوناني والروماني نفسه إلى الغرب . وقد رأينا - من قبل - كيف أن

الطهطاوي طرح هذه الفكرة ، أو - على الأدق - المعلومة نفسها ، في أكثر من موضع من أعماله ، لكن دون حماسة إسحق ومبالغته .

على أية حال ، فإن أديب إسحق يقف عند اليونان والرومان لا لذاتيهما - وإن استحقا - لكن لأنهما بمنزلة المدخل الطبيعي لفهم الحضارة والثقافة الغربية الحديثة ، « حتى أن العلم بلسانيتهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الأوروبية ، ولا يزال كذلك في الكثير منها حتى الآن » ؛ لأن لسانيهما كانا لغة الثقافة والمعرفة في الغرب ، حتى بعد استقرار أوضاع الألسن الحديثة لشعوب أوروبا . ولا نظن أن «العالمية» في تعبير إسحق تعني أكثر من « الانتشار في أوروبا كلها » على اختلاف لغات أهلها ؛ لأن اللاتينية - لغة الرومان القديمة - ظلت لغة العلم والثقافة لوقت طويل حتى في العصر الأوروبي الحديث . ولكنهما لم يحتلا المكانة نفسها خارج أوروبا إلا في بعض فترات من التاريخ القديم .

٢ - ٢

وقبل أن يشرع إسحق في موازنته ، يحدد مجال اهتمامه منها ؛ فهو معنى بالمقابلة بين « ما نشأ عن كل منهما من الآثار النافعة ، والموازنة بينهما في الفضل والمقام المدني »^(٨) . فكان اهتمامه متجه إلى ما تركه كل من الأمتين من « الآثار » العلمية والأدبية والفكرية « النافعة » ، والموازنة بين كل منهما في مضمار المدنية والحضارة ؛ ولهذا يركز - أولاً - على جغرافية الأمتين ؛ أي الحدود التي امتد إليها سلطانهما ، العسكري والثقافي ؛ « لما بين التاريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الأحوال »^(٩) . ثم ينتقل إسحق إلى التاريخ العام للأمتين ، قبل الدخول في صلب « المقابلة » .

٣ - ٢

وإذ يصل إسحق إلى تاريخ اليونان بخاصة نراه يلتفت ، وبقوة ، إلى إنجازاتهم العلمية والثقافية ؛ فقد

« ... نبغ فيهم العلماء ، وظهر منهم الحكماء ، الذين فتح عليهم بما كان مغلقاً على سائر الناس ؛ فأخرجوا الأذهان من ظلمات الجهالة ، ومهدوا سبل الخروج من دياجير الضلالة ؛ فاشتهر أشيل وسفقليس وأوريديس بفن التراجيدية البديع ، وظهر أرسطوفانوس بفن الكوميديا البهي ، ونبغ هيروdotus وتوقيديدس في صناعة التاريخ ، وبدت آثار الحكمة والفلسفة من تاليس

وذيمقريطس ، الذي^(٩) يُنسَب الذيمقراطيون إليه ، ومن فيثاغورس وبرمنيدس
وهرقليدس وإنكساغورس ؛ فأنشئت على يدهم [كذا !] مدارس الحكمة
الخالدة والآثار . وأبدع أبقرات في الطب ، وهو واضع أصوله ، وأول كاتب
فيه ؛ بلغ من العلم به إلى حد أن عُد علمه وحياً . وبقي [العلم] من بعده
ستمائة عام لم يزد واحد عليه حرفاً ، إلى أن ظهر جالينوس ؛ فأخذ ما كتبه
أبقرات وهذبه ، وزاد فيه . وظهر سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس ، حكماء
الأرض غير معارضين . واشتهر فيدياس ، مصلح الهندسة العظيمة ، وبرقليس ،
الخطيب العظيم ... وغيرهم كثير من العلماء والحكماء والفضلاء الذين أبقوا
لبلاد اليونان مجداً ثابتاً على مرور الزمان^(١٠) .

- هذا ، في الوقت الذي لا يثبت فيه للرومان إلا أمجادهم الحربية : فتوحاتهم
وحروبهم الأهلية وانقساماتهم ، حتى سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد
الثاني [الفاتح] عام ١٤٥٣م ، وتحولها إلى عاصمة للعثمانيين .

وكان إسحق أراد أن يؤكد لجمهوره ، وللحياة الثقافية العربية ، أن التاريخ
الحقيقي الباقي ، لا تصنعه السيوف والرماح ، بقدر ما تصنعه العقول والأقلام ؛
فالذين صنعوا مجد اليونان ، ليسوا هم القادة والجنود ، بقدر ما كان الفضل فيه لـ
« كثير من العلماء والحكماء والفضلاء » . فهم « الذين أبقوا لبلاد اليونان مجداً ثابتاً
على مرور الأيام » .

وبعد أن ينتهي أديب إسحق من كل من الجغرافيا والتاريخ ، يبدأ ببيان صعوبة
المقابلة .

« فقد امتلأت بأخبارهما صحف التاريخ ، وحارت في آثارهما أفهام
الأقديين ، واختلفت أحوالهما وعاداتهما ، كما اختلفت آثارهما والمنافع
الناشئة عنها ، حتى كادت الموازنة بينهما تمتنع ، لولا أن يكون الغرض منها
محدوداً ، قاصراً على ما نشأ عن كل من الأمتين من النفع الإنساني^(١١) .

فكثرة ما للقومين من الأخبار في التاريخ ، وحيرة المؤرخين والدارسين أمامهما ،

(٩) في الدرر : الذين ، ولا تستقيم . وفي علوش : اللذين ينسب ... إليهما . وأظن أنها - كذلك - لا
تستقيم ؛ لأن الديمقراطيين ينسبون إلى ذيمقريطس وحده . ولاحظ أنه استخدم : ذيمقريطس ؛ ذيمقراطيين -
بالذال ، لا بالdal . يقول البستاني (المقدمة ص ٨٣) : واليونانية خلط من الدال ؛ فكل دال فيها ذال .

فضلاً عن اختلاف أحوالهما ، وعاداتهما ، وآثارهما ، وما ترتب على هذه الآثار من المنافع - هذا كله يجعل الموازنة^(١٢) أو « المقابلة » بينهما مستحيلة ، لو ترك الإنسان نفسه لتفاصيلها دون دليل . لكن دليل إسحق - هنا - هو الهدف المحدد الذي يرمي إليه ، والذي ذكره آنفاً ، من الاختصار على « ما نشأ عن كل من الأمتين من النفع الإنساني » .

٢ - ٤

وهو ، أخيراً ، يصل إلى « المقابلة » ؛ فيرى أن لليونان فضل السبق على الرومان بتعليمهم ، وإخراجهم من الحالة الممجية إلى حالة العرفان والتمدن ؛ فاليونان « خرجوا من الحالة الممجية إلى حالة العرفان والتمدن من عام ١٩٠٠ ق.م ، والرومان لم يخرجوا إلى هذه الحالة إلا بعد ذلك بألف ومائتي عام .. » (الدرر ، ص ١٧ ع ٢٤) .

ومن فضائل اليونان أنهم ، حين بدأت نهضتهم الحضارية ، لم يستأثروا بها وحدهم ، ولم يوقفوها عند حدود بلادهم ، بل « جدّوا باكتشاف البلاد المجهولة ، واستعمار الأماكن المهجورة ، وتوسيع نطاق الأسفار في البحار ، ونشر آثار التمدن بين المتوحشين ، وفي جملتهم أصحاب دولة الرومان » . هذا ، في الوقت الذي لم يزد الرومان - إبان تغلبهم - « على إقامة الحروب ، وإضرار الفتن ، وفتح البلاد ، وإذلال الشعوب ، طمعاً ورغبة في الملك ، ... »

مَنْ أصلح الأمر هو السَّيِّدُ لا يستوي المصلحُ والمفسدُ » (نفسه) ويضاف إلى هذا أن اليونان ما تركوا علماً ولا فناً إلا ولهم فيه إسهام وافر ؛ إذ هم « .. الذين ضُربت بحكمتهم أمثالُ المتقدمين والمتأخرين ، وبقيت آثار علمائهم على كرور الأيام والأعصار فائدة للمتبصرين . وهم أهل الفلسفة غير معارضين ، ومنشئو الطب غير منازعين ، ومخترعو فن الروايات [يعني : المسرحيات] غير مسابقين ، وموجدو التاريخ غير مسبوقين . ومنهم رجال الأهرال ، وعظماء الأبطال ، وأكابر الخطباء ، وأعاضم الحكماء ، وفحول الشعراء . وهم الذين رفعوا في الأرض أولوية التمدن .. » (ص ١٨ ع ١٤) .

ولابد أن نلاحظ قول إسحق - عن اليونان - إنهم جدّوا في الاكتشاف والاستعمار ونشر آثار التمدن بين « المتوحشين » ؛ فالحقيقة هي أن القومين - اليونان والرومان -

معاً لم يتمايزا في هذه النزعة « الاستعمارية » والرغبة في « إذلال الشعوب ، طمعاً في الثروة والملك » - وقد أورثاها الغرب الحديث - لكن الإنجازات العلمية والفكرية والأدبية غلبت على الحضارة اليونانية القديمة ؛ فأخفت الكثير من معالم العنف فيها ، على العكس من الرومان ، الذين برزت نزعتهم العسكرية العنيفة إلى مقدمة الصورة ؛ لأنهم - في مجال الإنجازات الحضارية : العلمية والفكرية والأدبية - لم يكونوا - في أغلب الأحيان ، إن لم يكن في كلها ١ - إلا مقلدين لأستازتهم - اليونان أنفسهم - دون أن يجاوزوا - في أي فن أو علم - مرحلة التقليد إلى مرحلة الإبداع . فالرومان ، « وإن ظهر فيهم الخطباء والعلماء ، وكثر فيهم الأمراء والشعراء ، وبلغوا من التمدن غاية قاصية ، ووصلوا من العلوم [إلى] مكانة عالية ، إلا أنهم - في معظم ذلك - مقلدون وفي كثير منه لأهواء النفس تابعون ... » (السابق ، نفسه) .

فهل كانت الحضارة الرومانية - بهذا كله - قاحلة تماماً لم تنبت أدباً ولا علماً ولا فكراً ؟ يرد أديب إسحق على هذا السؤال ، الذي لا بد أنه رواد أحداً من الحضور ، قائلاً :

« .. إن الرومان قد نشروا أنوار العرفان في كثير من جهات الأرض ، وهذبوا الفنون والصناعات والشعر والخطابة أحسن تهذيب ؛ وإن منهم فرجيل ، المداني هوميروس ، وشيشرون ، المضارع للمُسْتَتِن ، وغيرهما ممن تضمن يمثلهم الأيام . ولكنهم - مع ذلك - لاحقون لليونان ، غير سابقين في شئ من تلك المحاسن ؛ فالفضل الأكبر لأساتذتهم على كل حال » (ص ١٨ ع ١) .

بل إن أديب إسحق شاء ألا يحرم اليونان من « فضل » - إن كان كذلك ! - اشتهر به الرومان ، وتردد كثيراً في الدراسات التاريخية ، حتى في معرض الذم والقدح ؛ أعني ما شاع عن الرومان من تفتنهم في « أساليب الحرب وأحكام العسكرية » . فهذه أيضاً - « على تقدير أن تكون من المنافع الإنسانية » ، كما يستدرك إسحق نفسه ! - لم يخلُ اليونان منها ؛ « كيف ١٩ وفي اليونان أمثال القائد أباستنداس الكبير ١٩ » (نفسه) .

ويخلص أديب إسحق من هذه « المقابلة » بين اليونان والرومان ، إلى القول :
« وجلة القول أن اليونان ، والرومان من بعدهم ، أمتان تجارتا في مضمار المجد والسؤدد ، وتبارتا في مجال العز والنجاح ، وكانت كل منهما مظهراً للفنون

البهية ، والعلوم السمية [كذا ! يعني : السامية] ، والتمدن الإنساني ، حتى امتلأت صحف التواريخ بأخبارهما ، وتزينت بقاع الأرض المعروفة بآثارهما ، وما برحت علماءها أساتذة العالم ، وحكماؤها أدلاء الإنسانية أعرافاً تليها أعوام ، وهم في المنزلة الأولى من الفضل ، إلى هذه الأيام . غير أن الأمة الأولى كانت إلى غايات الفضل أسبق ، وفي نسب المدنية والمعارف أعرق ؛ فالقول الحق أنها بالتقديم أحق . والله أعلم !» (ص ١٨ ع ٢) .

- ٣ -

والملاحظة الأولى على هذه « الخطبة » - أو « المحاضرة » ، إن شئنا ! - أنها تستوفي كثيراً من شروط « المقارنة » العلمية . فالعلاقة التاريخية بين الأمتين - اليونانية والرومانية - مؤكدة ، ولا تحتاج إلى دليل . كما لا يحتاج إلى دليل أيضاً كون الرومان تلامذة اليونان حضارياً ، وأن الثقافة الغربية الحديثة برمتها ابتنتها الشرعية ، مع الاعتراف بأهمية المصادر الأخرى ، الشرقية بخاصة ، في هذا المجال ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فالمنهج الذي أقام عليه أديب إسحق « مقارنته » فيه قدر لا بأس به من المنهجية الفرنسية في الأدب المقارن ؛ أعني - بخاصة - أنه بدأ بتحديد موضوعه - على اتساع هذا الموضوع نفسه ، كما سنرى - وهدفه من البحث ، ثم وصف المهادين الجغرافي والتاريخي ، للأمتين اللتين يقارن بينهما ، قبل أن يصل إلى مقصده الأساسي من « المقارنة » ، وهو مقصد « حضاري - ثقافي » في الدرجة الأولى .

وهذا كله يجعلنا نقطع - أو نكاد - بلأن أديب إسحق كان على اطلاع - بشكل ما - إما على المناقشات التي كانت دائرة في الأوساط الثقافية الفرنسية - بخاصة - حول الأسس التي يمكن أن يقوم عليها هذا العلم الذي يوشك أن يرى النور ، بعامه ، أو على مناقشات تدور حول هذا الموضوع - المقارنة بين اليونان والرومان - بخاصة .

لكننا لا بد أن نلاحظ - أيضاً - أن أديب إسحق جار - في تناوله للموضوع - على مقصده الأساسي منه ؛ فقد جاءت « مقارنته » سريعة ، مختصرة ، إذا قيسنا بالحجم النسبي لوقفته عند الجوانب التاريخي - بخاصة - للأمتين ، التي طالت كثيراً ، مع أنها لم تكن - بالنسبة إلى موضوعه الأساسي - إلا مدخلاً . ثم إنه لم يوظف حتى هذه الوقفة التاريخية لخدمة موضوعه ؛ فجاءت أقرب إلى النبوءة عن السياق .

وإذا عدنا إلى المقصد الاساسي نفسه ، مرة أخرى ، لوجدناه وقد غلبت عليه الأحكام التقويمية دون تركيز حقيقي على الإنجازات الحضارية لكل أمة من الأمتين ، لتكون « الأحكام » موثقة ، أو حتى ترك الأحكام مطلقاً للمتلقين .

وإلى جانب هذا فقد أشرنا آنفاً إلى غلبة اللهجة الخطابية الحماسية على إسحق ، والتي كانت مسئولة عن الأحكام والجمل ذات الصياغة العامة والمطلقة في الحكم على كلتا الأمتين وتوجيهيهما .

أما ترجيحه لكفة اليونان على الرومان - ثقافياً وحضارياً - فهو أمر معروف ومتداول ، حتي قيل : « إن الرومان غزوا اليونان بجيوشهم ، فغزاهم اليونان بأدبهم وفلسفتهم »^(١٣) .

- ٤ -

ولكن أحكام إسحق العامة ، وحماسه البادية لليونان ، جعلت مناقشته فرضاً ! فهو ينسب بداية كل علم وفكر وأدب إلى اليونان القدماء ، وكأنهم كانوا بداية التاريخ ، وبداية « حالة العرفان والتمدن » على الأرض ، وهو ما يناهز حقائق التاريخ التي تؤكد أن اليونان كانوا تلاميذ - مثلاً - للحضارة المصرية القديمة ، وللحضارة الفينيقية . بل إنه هو نفسه يشير - إشارة عابرة - في عرضه لتاريخ اليونان ، إلى أنه في « مرحلة البطولة » - أو « أيام الأبطال » بتعبيره - « أدخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين والفينيقيين ، وسُنّت لأهلها القوانين والشرائع » (ص ١٤ ع ١٤) . ومع غموض تعبير « مذاهب المصريين والفينيقيين » ، فإن ما بعده من أنه « سنت لأهلها القوانين والشرائع » يشير ، بوضوح ، إلى أن اليونان خرجوا من حالة الفوضى ، القريبة من الهمجية ، إلى حالة النظام والاستقرار و « التمدن » بما استعاروه وتأثروا به من مصر وفينيقيا ، العريقتين في الحضارة .

أكثر من هذا أنه - في هذا الإشارة الغامضة - لم يُشر إلى استفادات أوسع - يذكرها التاريخ - في مجالات العلم والفلسفة والأدب ، بل والدين ، استفادها اليونان من الحضارات القديمة في المنطقة ، وأثرت كثيراً في عطايتهم الثقافي والحضاري بعامة .

- ٥ -

لا نعي بهذا - مطلقاً - أن نقسو على أديب إسحق بتسفيه عمله ؛ فقد كان شاباً في

مقبل عمره ، وبداية مسيرته الأدبية والفكرية . ومن الطبيعي في هذه الظروف ألا يكون مستكماً لأدواته كلها ، وأن تكون لهجة كلامه - ككلام الشباب بعامة - حماسية ، مطلقة الأحكام . كما أن ضيق مجال الكلام في « خطبة » - أو محاضرة - عامة ، وفي وقت محدد لم يكن يتيح له استدراك هذا الذي ذكرناه كله ، حتى لو أراد! بخاصة وأنه اختار لخطبته موضوعاً واسعاً جداً لا يحتمله هذا الموقف ؛ فالمقارنة بين أمتين ، احتلت كل واحدة منهما هذه المساحة الواسعة ، في الزمان والمكان والعطاء الحضاري ، وباعتزافه هو في البداية ، تكاد تكون مستحيلة ، إلا إذا اختار لها المتحدث نقطة ، أو نقاطاً قليلة محددة ، يحتملها الوقت والجمهور والمتكلم نفسه .

على أية حال ، فلا شك في أن أديب إسحق - بهذا العمل ، قاصداً أو غير قاصد - قد أحيا في الأذهان فكرة المقارنة من جديد ، وبعد أن مرّ وقت طويل - حوالي خمسة وأربعين عاماً - على نشر كتاب الطهطاوي ، الذي كان له فضل الريادة في هذا المجال ، بخاصة وأنه كان أول من أثار الفكرة الأساسية التي دخل بها إسحق إلى محاضراته أو خطبته ، وهي أن المعرفة بهاتين الثقافتين - اليونانية والرومانية - هي المدخل الطبيعي لفهم الثقافة الغربية الحديثة كلها ، كما رأينا .



روحي الخالدي : تاريخ علم الأدب ..

- ١ -

روحي الخالدي^(١) مثقف فلسطيني بارز ، عمل بالسياسة طويلاً ، لكنها لم تشغله عن اهتماماته العلمية والأدبية . وكانت له إسهامات أدبية وعلمية قدمها إلى الحياة الثقافية العربية منذ بدايات القرن العشرين ، لعل أهمها هذا الكتاب الذي نعرض له : تاريخ علم الأدب بين الإفرنج والعرب وفيكتور هوكر^(٢) .

ونعرف من حياة الخالدي أنه أقام بفرنسا قريباً من عشرين عاماً متصلة ، دارساً ومدرّساً وقنصلاً ، جعلته على صلة وثقى بالثقافة الغربية ، بعامة ، والثقافة الفرنسية بخاصة . وهذا ما سيتضح لنا بجلاء من وقفنا مع كتابه ، أو ما يهمنا منه ، هنا . كما سيظهر بوضوح ، كذلك ، أنه لم ينقطع هناك عن الثقافة العربية ، القديمة منها والحديثة - خلال هذه الفترة نفسها ، بخاصة وأنه - في فرنسا - كان قريباً من مراكز نشر التراث العربي بمجهود المستشرقين الأوروبيين في القرن الماضي وبداية هذا القرن .

وكتاب الخالدي سياحة واسعة في تاريخ الأدب العربي ، والأدب الفرنسي ، ثم في أعمال فيكتور هوجو . لكننا - بطبيعة الحال - سنركز هنا على جهوده في المقارنة بين الآداب ، سواء منها العربي - مع الآداب الشرقية القديمة ، أو العربي مع الغربي ، أو الشرقي - الفارسي بخاصة - مع الغربي ، ثم بين الآداب الغربية بعضها والبعض الآخر .

وبداية ، لابد من أن نشير إلى أن الخالدي قد نص في عنوانه نصاً على أن «المقابلة» بين الأدبين العربي والإفنجي ، هدف من أهداف كتابه ، وجزء من المنهج التاريخي الذي يقوم عليه ؛ فنراه يقول ، بعد العنوان الرئيسي إنه سيتعرض لتاريخ الأدب عند الإفرنج في نهضتهم الأخيرة «وما يقابل ذلك عند العرب إبان تمدنهم» ، كما ينص على المقابلة في المقدمة الفرنسية التي وضعها للطبعة الثانية من الكتاب ، وتلت مقدمة الناشر .

- ٢ -

أما إسهام الخالدي في « الأدب المقارن » - بتعبيرنا - أو « المقابلة » بين الآداب بتعبيره ، فتندرج أقسام منه تحت المستوى الأول ، التاريخي - الثابت أو القريب من الثبات - الذي يبحث في قضية تأثير أدب ، أو آداب ، بأدب أو آداب أخرى . كما تندرج أقسام أخرى تحت الإشارة - في الغالب - إلى مشابهات ، أو تلاقات ، أو تقاطعات بين أديين أو أكثر ، خلقتها ظروف إنسانية أو موضوعية / تاريخية متشابهة ، أثرت على هذه الآداب ، دون تعرض لقضية التأثير والتأثر ؛ وهو ما ميزناه بمصطلح «المقابلة» ، بإزاء مصطلح « المقارنة » الذي خصصناه به المستوى الأول، التاريخي .

١- ٢

وهو يبدأ بالمستوى الأول من هذين المستويين - التاريخي / المقارن - حيث يقف - وهو يستعرض تاريخ تطور الأدب العربي - عند الترجمات التي تمت في العصر العباسي، إلى العربية من اللغات الأخرى . فهو يشير إلى ترجمات من العبرية والفارسية واليونانية والهندية . وهو يرى - بعامه - أن هذا العمل الكبير [يعني : الترجمة من هذه اللغات إلى العربية] :

« .. لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ، ولم يغير شيئاً من أساليبه القديمة ، ودامت أساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصبو نحوه كل شاعر بالعربية ، في قديم الزمن وحديثه .. » (ص ٣٧) .
فالشعراء العرب - بل الأدياء العرب جميعاً - لم يستفيدوا من هذه المصادر جميعاً إلا « العلم والحكمة فقط » (نفسه) .

غير أن الخالدي يستثني من هذه الترجمات جميعاً ما ترجم عن العبرية ؛ فيقول - متابعاً للمستشرقين في هذا - إن « العارفين باللغات » :

« نصوا على أن لأدب اللسان العبراني تأثيراً على أدب العرب ، قبل الإسلام وبعده . وذكروا مشابهاً وتوارداً في الخواطر بين ما جاء في شعر امرئ القيس ، الذي يضرب به المثل إذا ركب ، وبين ماورد في سفر أيوب من التوراة في وصف الفرس^(١٦) . ونقل ، بعد الإسلام ، من العبرانية إلى العربية ما سمي بالإسرائيليات ، مثل التواريخ ، وقصص الأنبياء ، ومناقب الصالحين ، مما هو في التوراة والتلمود^(١٧) . وكان نقلها عن أحبار اليهود الذين أسلموا ،

مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وأمثالهما ، رضي الله عنهم» (ص ٦٧).
ولا حاجة بنا إلى القول إن العبريين لم يكن لهم - مدي تاريخهم - ما يمكن أن يُسمى بـ «أدب اللسان العبراني» ، وإنما كان أدبهم - دائماً - عالة على ثقافات الشعوب التي عاشوا بينها . وإن كنا لا نجادل في تسرب كثير من « أدبهم » الديني إلى تفسير القرآن ، خاصة ، كما ذكر الخالدي .

ومما يتصل بالموضوع نفسه - تأثير الآداب الشرقية القديمة على الأدب العربي - يذكر الخالدي - في سياق إشارته إلى كراهية الكلاسيين للمبالغة - أن الأدب العربي القديم لم يتأثر بمبالغات شعراء الفرس إلا في عصوره المتأخرة . يقول الخالدي عن الخيال عند الكلاسيين :

« .. فإذا كان التخييل الشعري في التأليف الأدبي منافياً للعقل ، فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية [الكلاسيية] . مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب . ومبالغات العرب أقل من غيرها ، لاسيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الأولى من الإسلاميين ، الذين لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم ، ولا حصلت لهم ألفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم . ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق:

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني... إلى أن قال : لولا مخاطبتي إياك لم ترني^(١٨)؛
فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ، ولا تحدث في العادة . والمتنبي ولد في الكوفة ، وذهب إلى فارس ، واختلط بأدباء العجم » (ص ١١٨) .

- ويستطرد الخالدي - بعد هذا - إلى سرد نماذج من المبالغات عند شعراء الترك ، المتأثرين - كذلك - بمبالغات الأدب الفارسي .

٢ - ٢

لكن ، ماذا على الجانب الآخر ؟ أعني أنه ، إذا لم تكن « الآداب الأعجمية » قد تركت أثراً واضحاً أو كبيراً على الأدب العربي ، ألم يكن للأدب العربي أثر واضح في الآداب الشرقية - على الأقل - كالفارسي والتركي وغيرهما ؟ لا يلقي الخالدي على نفسه هذا السؤال ، بل يتجه اتجاهاً آخر ، هو الذي من أجله وضع كتابه . إذ

يتساءل الخالدي :

« فإنا لم يكن لفنون الأدب الأعجمية كبير تأثير على شعر العرب ونثرهم ،
فهل لفنون الأدب العربي تأثير على شعر الإفرنج ؟ » (ص ٦٩) .

وفي محاولته للإجابة عن هذا السؤال ، يحكي لنا الخالدي كيف كانت بداية اهتمامه
إلى الإجابة أو الطريق الصحيح ؛ إذ يقول :

« نَبَّأنا بأبحث عن جواب هذا السؤال ، وإذ رأيت في جريدة طرابلس الشام ..
مقالة عن الزجل والتواشيح ، وكتاب « العذارى المائسات » ، الذي
استخرجه صاحب جريدة «الأرز» من سفر قديم العهد ، مخطوط بالخط
المغربي المشج عشر عليه .. وقال فيه [يعني : في المقال] : « فتصفحته [أي :
الكتاب] فإذا فيه طائفة كثيرة من الشعر الفائق ، مقطوعات ومختارات ، خرج
بها ناظموها عن أوزان الشعر العربي المعينة وأجزاء بحوره المفروضة ، وأحكام
أعاريضها وضروبها المطردة ، بيد أنهم أجادوا في هذا منتهى الإجابة »
(ص ٦٩) .

- وإذا هذه المجموعة من « الشعر الفائق » ألوان من الموشح ، والزجل ، وعروض
البلد ، والمزودج ، والكاري والمَّلْعَبَة ، والغزل - قال عنها صاحب «الأرز» :
« وقد استحسن شعراء الإفرنج ، من الأسبان والألمان والطيالان
والفرنساويين ، هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا على منوالها ،
كما يُرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولا مرأى بأن ذلك انتقل إليهم من
العرب ؛ حيث لم يأنسوا بأنوار هذه المستحدثات إلا في أواخر القرن الثالث
عشر ... » (ص ١٧٠) .

وقد انطلق الخالدي من هذه النقطة التي حدّد صاحب «الأرز» مكانها وزمانها في
كلامه المحمل ؛ فعلق الخالديّ أنه « إيضاحاً لمحمل هذا القول ، رأينا أن نبحت في منشأ
الأدب الإفرنجي ، وفي دخول العرب بلاد الإفرنج » . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ،
يطيل الخالديّ تطوافه في : «نشأة مملكة الإفرنج ولغاتها حتى الفتح العربي» ، و «فتح
العرب للأندلس» وتوغلهم في فرنسا، وفي «داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها» ،
و «فتوح العرب في جنوب أوروبا والحروب الصليبية» - ليصل ، بعد هذا كله ، إلى

نتيجة مؤداها :

« أن الاختلاط بين العرب والإفرنج لم ينقطع ، لا في الحروب الصليبية ، ولا قبلها ، حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطنوا في جنوبها ، وحرثوا أرضها ، وتزوجوا بناتها ، وتاجروا مع أهلها ، وعمروا مدن نربون (نربونة) وقرقسون (قرقشونة) وفرانقسينه ، وأخذوا الأسرى من الإفرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة ...

..وحيث كان المسلمون ، في ذاك العصر ، أرقى حضارة وأدباً من جيرانهم المسيحيين ، كانت الإفرنج تقتبس من معارف المسلمين ، وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم» (ص ٩٧-٩٨) .

فالوجود الحي للعرب والمسلمين لم ينقطع تأثيره طوال فترة وجودهم في الأندلس وجنوب فرنسا ، ثم في جنوب إيطاليا وصقلية . كما أن هذا التأثير لم يتوقف طوال عصر الحروب الصليبية ، وقدم الأوربيين أنفسهم إلى الشرق العربي ؛ فطوال هذه القرون «كانت الإفرنج تقتبس من معارف المسلمين ، وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم» .

ولا يكتفي الخالدي بهذه الأدلة التاريخية العامة في إثبات التأثير العربي - الإسلامي في الأدب الأوربي ، بل يضرب أمثلة محدّدة على هذا التأثير . فهو يتوقف - أولاً - عند البابا سلفستر الثاني (٩٣٠ - ١٠٠٤م) ، الذي تلقى مبادئ العلوم باللاتينية في مدينته - «أوريياق» - ثم رحل إلى الأندلس ؛ فجاور في مدرسة إشبيلية ثلاث سنوات ، عاد - بعدها - «متبحراً في العلوم والمعارف ، حتى حسبه الناس ساحراً . واتخذ الملك مؤدباً لأولادهم . وتقلب في المناصب حتى أحرز رتبة البابوية» (ص ٩٨) . ويتكرّر الكلام ص ١٠٨) . وقد «اقتفى طلاب العلم [في أوربا] أثر هذا البابا الحكيم» .

وكان شباب شعراء أوربا وأدبائها «يقلّدون شعراء العرب وأدباءهم» ، بل كان الفرنسيون والأسبان «يكتبون على تعلّم أشعار العرب وأزجالهم» . وكان فقراؤهم يسألون الناس بالشعر العربي فيعطونهم ؛ «لا لفهمهم ما يقولون ، وإنما شوقاً منهم وحناناً للألحان والأنغام والقوافي الرّنانة» ، كما كانت العربية هي «اللسان الرسمي في صقلية على عهد رُجّار [Roger II] ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة

الإسلامية منها . وكانوا يحجرون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة» .
«واستعمل علماؤهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوربا» (ص ١٠٨) . وكان
وجر الثاني ، ملك صقلية ، قد استقدم إليه الشريف الإدريسي ، «وأقام أحفاد ابن
شد ، المتضلعون في علم الحيوان والنبات ، عند خلفاء رُجَار» .

وبعد أن يرصد الخالدي مظاهر الوجود الحي للعربية وآدابها في جنوب أوربا ،
ينجّه إلى متابعة ما أجمع «العارفون» على أنه من مؤثرات الأدب العربي في الأدب
الإفرنجي . فيبدأ من الشعراء التروبادور Troubadours ، وهم «صنف من المذاحين
يطوفون من قصر لقصر ، ومن قلعة لأخرى ، ومعدحون الأمراء وذوي الوجاهة ؛
ويسمّون أديهم بالعلم المطرب» (ص ٩٩) . وكان شعرهم - في أوله - بلا قوافٍ ،
كشعر الرعاة^(١) ، ثم أخذوا القافية عن الشعر العربي . وكان ذلك في القرن الثالث
عشر الميلادي .

ولم تكن القافية - وحدها - هي ما أخذه «التروبادور» عن الشعر العربي ، بل
أخذوا معها - كذلك - بعض فنون الشعر العربي والأدب العربي بعامة .

« وأخذوا عن العرب - في المنظوم - أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو
والهزل ؛ أي ما يسمونه ليريك [Lyric; Lyrique ؛ غنائي] ، وما يسمونه
ساتيرك [Satiric; Satirique ؛ هجائي أو ساخر] . كما أخذوا عنهم - في
المنثور - القصص والملح وضروب الأمثال . ومنها ما نقلوه نثراً ، ثم نظموه في
لغتهم . وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً ؛ فآلفوا حكايات وتطريفات^(*) على
أقْسَة^(**) القرى وخدم الكنائس ، ليضحكوا منهم الأمراء والفرسان ، الذين
يسمونهم شيفاليه [Chivaliers] . وفي هذه الحكايات والنوادر ، المأخوذة عن
العرب ما أصله الأول من حكايات الفرس والهنود ؛ وترجمت إلى العربية ، ثم
نقلت للإفرنجية » (ص ٩٩ . راجع أيضاً ص ١٠٩) .

فكان العربية لعبت دورين معاً ، في علاقتها باللغة الإفرنجية ؛ الأول دور المعطى من
نتاجها الخاص وأدبها الذاتي ؛ ثم الوسيط ما بين الفارسية والهندية ، من جهة ،

(*) يعني حكايات ظرفية ، ساخرة .

(**) جمع غريب لنفس .

والإفرنجية من جهة أخرى .

ولم يقف تأثير الأدب العربي عند حدود الجنوب الفرنسي وشعراء التروبادور ، بل إن شعراء الشمال - التروفر Trouvaires - أخذوا عن الشعر العربي « القوالي ورقة الغزل واللحن الموسيقي » . أما الفرسان من الإفرنج ، فصاروا « يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر ؛ فكانت فضائل الفارس : المهارة في الفروسية ، وحفظ الشعر والتأمل به ، وفي لعب الشطرنج ؛ فتحسن الشعر الإفرنجي بإدخال القوالي العربية فيه وباقتباس أدب الأندلسيين ورقة غزلهم » (ص ١٠٠) ، وسيتكرر هذا الكلام، وما قبله ، ينصه تقريباً ، ص ١٠٣ - مع إضافات سنشير إليها) .

ويعرّج الخالدي على أهم ملحمتين شعريتين ظهرت في « اللسان الفرنسي » في وقت كانت اللاتينية هي اللغة السائدة ، ثقافياً ، في أوروبا كلها ، ولم يكن يفهما « لا الملوك والأمراء ولا الرعية » ! وهما « أغنية رولان La Chanson de Roland » و« حج شارلمان إلى القدس »، التي سبقت الإشارة إليها .

فيلاحظ ما بين « أغنية رولان » و « سيرة عنزة بن شداد » الشعبية من مشابهات ؛ ففي « أغنية رولان » من المبالغات ما في قصة عنتر ، وحُسمت فيها الحرب التي حصلت بين الإفرنج وعرب الأندلس ، وجعلت رولان عنتر زمانه ، وألحقته بنسب شارلمان ، وادعت بأنه ابن أخيه وذراعه اليمنى .. » (ص ١٠١) .

فـ « المبالغة » — في قوة كل من عنزة ورولان وشجاعتهما - أول ما يربط «الأغنية» بالسيرة، ثم تجسيم الحرب ، والحرص على النسب الشريف أو الحر للبطلين .

ويربط بينهما أيضاً ذلك الشبه الذي نراه في الوصف الذي يوصف به «دورندال» - سيف رولان - والدور الذي يلعبه ؛ فهو سيف مصنوع من معدن ، لعله « المعدن المسبوك منه »صمصامة « عنزة و« ذو الفقار » علي [بن أبي طالب] رضي الله عنه .. وقد تهور الإفرنج في وصف (دورندال) .. ، وجعلوا القوة والشجاعة بأجمعها في السيف ، حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف . ولم يزل أثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً إلى يومنا هذا .. » (ص ١٠٢) . ومع السيف ، فلرولان حضان ، « كأنه هو و « أبحر » عنزة بن شداد فرسا رهان » .

ولا يفوت الخالدي الهدف الديني في « أغنية رولان » ؛ فيقول :

« ولم يفت ناظم أغاني رولان ذكر الملائكة ، وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي ، وجعل فضائل المجاهدين : الشجاعة العسكرية ، والطاعة لأولي الأمر ، وهم (السوزيرين) ، والتصلب في الدين المسيحي ... » (ص ١٠٢) .

وقد كان لـ « أغنية رولان » شأن ، أي شأن ، حتى عصر الخالدي ؛ فهي « مترجمة » إلى الفرنسية العصرية ، ومطبوعة . كما كان لها شأن - طوال تاريخها - « في عموم أوروبا ، وفي إنكلترة ، وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الألمانية ، ولغة السويد والنرويج » (ص ١٠٢ - ١٠٣) .

ويتخذ الخالدي من حديثه عن « أغنية رولان » وأثرها ومكانتها مَعْبَراً إلى موضوع يعد من صميم الأدب المقارن عند الفرنسيين ، وهو « صورة شعب أو أمة عند شعب أو أمة أخرى »^(٢٠) . فما قام به رولان من « جهاد مسيحي » إنما كان ضد المسلمين ؛ فكيف كان تصور الفرنسيين للإسلام والمسلمين ، سواء في الماضي أو الحاضر ؟ يجيب الخالدي أنه من « الأغنية »

« .. يظهر اعتقاد الإفرنج ، إذ ذاك ، في الإسلام والمسلمين ؛ فإنهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة إلى عبادة الأصنام ، ويعتدون من أصنامهم أبولون^(٢١) . ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنسية يعتقدون هذا الاعتقاد إلى يومنا هذا ، كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم » (ص ١٠٣) .

والخالدي لا يتعرض - بطبيعة الحال - لتصحيح هذه الصورة المغلوطة ، بل العجيبة ، عن الإسلام والمسلمين ؛ فليس المجال - هنا - مناسباً . لكننا لابد أن نلاحظ أنه لم يعتمد في التقاط هذه الصورة على القراءة وحدها ؛ فربما تغيرت الصورة بعد مرور هذا الزمن الطويل - أكثر من ثمانية قرون - على ظهور « الأغنية » وانتشارها ؛ فيؤكددها - لنفسه قبل الآخرين ! - بالرحلة والاتصال و « المحادثة » مع « الكثيرين من أهل القرى الفرنسية » .

ولا يتعرض الخالدي بالتفصيل نفسه لـ « حج شارلمان إلى بيت المقدس » ، فضلاً عن قصائد وحكايات كثيرة « في الحروب الصليبية » مكثفياً بالقول إنها نظمت « على نسق أغاني رولان » (ص ١٠٣) .

ثم يضيف الخالدي إلى ما استفاده شعراء الإفرنج من الشعر العربي أنهم أخذوا عنه « .. الأشعار المهجوية الهزلية ، والملح والفكاهات مما هو على نسق » كليلة ودمنة » ، وضروب أمثال لقمان ، وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات . فمن ذلك (رومان والثعلب) و(أمثال إيروب) و(رومان روز) وغير ذلك . وقيل للمنظوم من ذلك (الأغاني) أو (أغاني القصص) « (ص ١٠٣) .

٣-٢

وتحت عنوان : « اقتباس الإفرنج العلوم من العرب » ، يقف الخالدي عندما رآه ملوك الفرنجة وأمرؤها في الشرق ، أثناء الحروب الصليبية ، ثم استفادتهم منه ؛ حيث « .. رأوا بأعينهم أدباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم وأطبائهم وحكماءهم ، سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي .. ؛ فقدروا الأدب حق قدره ، واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم ؛ فألف بعض الرهبان .. تاريخاً لدولة الإفرنج ... فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الإفرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم ، وذكر شئ من أخبارهم وحروبهم » (ص ١٠٣ ، بتصريف يسير) .

وبعامة فهو يرى أن الحروب الصليبية انتهت إلى نتيجتين ؛ « إحداهما مادية عسكرية ، والأخرى معنوية أدبية . فالنتيجة المادية رجوع الإفرنج عن الغنيمة - بعد الكد - بالقفل^(١) ، وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق ، وسلوكهم ، منذ ذلك التاريخ ، سبيل : الانتظام والترقي » (ص ٩٧) .

وهو كلام - تاريخياً - لاجدال فيه !

- وحين أنشأ الإفرنج مدرسة للطب في مونبلييه (القرن الثالث عشر الميلادي) ، وكانت ثاني مدرسة للطب في أوروبا بعد مدرسة ساليرن في نابولي ، « كانت الأندلس في منتهى عزّها وحضارتها ؛ فجلبوا منها .. المعلمين والمدرسين ، من العرب واليهود

(١) القفل والقفل بمعنى الرجوع والعودة عموماً . لكن الخالدي يعني بها - هنا - العودة الخائبة ، فيما نظن .

المستعربين» (ص ١٠٤ و ص ١٠٨) . وكانت العربية الواسطة التي انتقلت بها علوم اليونان وفلسفتهم إلى اللاتينية ، التي كانت لغة أوروبا الثقافية آنذاك ، قبل أن يبدأ الإفرنج في ترجمة هذه الكتب من اللاتينية إلى لغتهم في القرن الرابع عشر .

ولا تفوت الخالدي ملاحظة أن بعض الأعمال المسرحية التي كتبها الكلاسيون الفرنسيون ذات موضوعات تتصل بالتاريخ الإسلامي في الأندلس ، ويضرب على ذلك مثلاً مسرحية «السيد Le Cid» لبير كورني P. Corneille (١٦٠٦ - ١٦٨٤م).

٢ - ٤

وفي إطار تأثير الآداب الغربية - بعامة - بالآداب الشرقية ، يشير الخالدي إلى تأثر الشاعر الألماني يوهان فولفجانج جوته J. V. Gottle (١٧٤٩ - ١٧٣٢م) ، وبخاصة في «الديوان الشرقي» ، ثم تأثر فيكتور هوجو نفسه ، بالشاعر الفارسي المتصوف الحافظ الشيرازي (ت ٧٩٤ أو ٧٩١هـ) ؛ فقد «ترجم ديوان الحافظ للغات الأوربية ، كما ترجمت مؤلفات الأكابر من شعراء الفرس ، مثل الفردوسي صاحب الشاهنامه ... ، ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي ، صاحب «الكلستان» و«البهستان» ... ؛ فإفرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره أسلافهم^(*) ، وذكره فيكتور هوجو في مؤلفاته ، ونقل عنه » (ص ١٢٩ ، بتصرف يسير) .

٢ - ٥

أما في مطلع العصر العربي الحديث ، فقد أخذ الوضع في التحول ؛ إذ أصبح الأدب العربي ، أو قل: الآداب الشرقية كلها ، هي التي تأخذ عن الآداب والحياة الثقافية الغربية .

وقد كانت بعض التأثيرات للآداب الشرقية بالآداب الغربي واضحة أمام الخالدي ، لكن بعضها الآخر لم يكن قد تبلور أمامه بعد .

ففي وقفة الخالدي أمام تاريخ الأدب الفرنسي ، يشير إلى النهضة التي شهدتها هذا الأدب في عصر لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥م) ، ونشأة «الأكاديميات» اللغوية والعلمية ، و«الصالونات» الأدبية ، وأشهرها في ذلك العصر الندوة التي كانت تديرها «الماركيزة رامبويه» في دارها للأدباء من سنة ١٦٣٥ إلى ١٦٦٥م . وقد

(*) يشير الخالدي إلى أن الصليبيين - أسلاف الأوربيين المعاصرين - أسروا سعدي وسجنوه في طرابلس الشام!

أرادت « بعض سيدات الآستانة ، في عصرنا تقليد الماركيزة في حماية الأدب والمعارف ؛ فنجح علمهن مدة ، ثم أقفلت دورهن » (ص ١٠٥) .

وحين يقف عند كتاب بوالو « الفن أو الصناعة الشعرية Art Poétique » وأثره في الاتجاه الكلاسي في الأدب الفرنسي ، يذكر أن ممن « اقتفى أثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا ، وألف مجموعة سماها « الخرابات » ؛ خرب فيها كثيراً من أشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه ... فحاء كمال بك ، إمام الأدب في اللسان العثماني ، وكتب عليه انتقاداً سماه « تخريب الخرابات » .. فالغاية التي يتطلبها أئمة الأدب العثماني - كاللذين ذكرا ، وعبد الحق حامد مستشار سفارة لوندرة ، وكرم بك ، وسعيد بك ، من أعضاء الشورى ، والمعلم ناجي ... وبقية النشأة الجديدة - هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس والأعاجم ، والسلوك فيه منهج بوالو وراسين وقورنيل [كورني] ومولير وبقية أدباء عصر لويس الرابع عشر [الكلاسيين] » (ص ١١٥) .

فالنص السابق يؤكد على أن نشأة النقد الأدبي في الأدب التركي الحديث كانت بتأثير من كتاب بوالو والنقاد الكلاسيين ؛ ولهذا كان الهدف الأساسي لهذا النقد ، ولحركة التجديد بعامة في تركيا ، تخليص الأدب التركي من المبالغات التي ورثها عن الأدب الفارسي ، والأدب العربي في عصوره المتأخرة ، اتباعاً لما كان الكلاسيون يؤمنون به من التزام الحقيقة ، والاعتدال في الخيال والتعبير، والبعد - من ثم - عن المبالغات المفقرة أو الخارجة على حدود العقل .

وعلى الرغم من أن الخالدي يذكر « ضيا باشا » على رأس المقتدين ببوالو والكلاسيين ، وأنه « في مقدمة النشأة الجديدة العثمانية ، وله وقوف على الفرنسية » - على الرغم من هذا فهو لا يجد مثلاً على المبالغات في الأدب التركي المتأثر بالفارسية ، سوى مثل من شعره هو ، يترجمه على النحو التالي : « مثل قد الحبيب كاشجار سرو تناطح برؤوسها الأفلاك » ! (ص ١١٨) ولعله من شعر شبابه أو ما قبل تأثره بالكلاسيين ، لكن - على أية حال - كان على الخالدي أن يتنبه !

وإلى جانب هذه التأثيرات في المذاهب الفنية - الكلاسيية بمخاصة - نجد الترجمات عن الأدب الفرنسي . فحين يذكر الخالدي الشاعر الفرنسي لامارتين A. de Lamartine وديوانه «التفكيرات الشعرية Le Meditations Poetiques» [التأملات الشعرية] ،

يقول :

« من أحسن ما نظمته [لامارتين] قصيدة (البحيرة) ، التي ترجمها نظمًا للسان العثماني سعد الله باشا ، سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقًا . وفهمت بأن أحمد بك شوقي ، شاعر الحضرة الخديوية ، ترجم القصيدة المذكورة للعربية » (٢٣) (ص ١٣٥) .

٦ - ٢

فإذا انتقلنا إلى مجال المقارنات داخل النطاق الأوربي ذاته ، وبين لغاته ، يذكر الخالدي أن « أسبق أمم أوروبا إلى تحصيل فنون الأدب الإسبانيول والطلليان ، المجاورون للعرب ؛ فظهر في الأولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه [لوب دو فيجا ؛ أو فيجا L. de Vega] ، ونظم نحر ألف ومثاغمية رواية ومثيلية ، وظهر فيهم أيضاً قالدديرون [كالديرون Calderon] ولوقين ، وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي [Dante] (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) ، وطار له ذكر في العالم ، وهو يعد في مصاف أكبر شعراء الأمم القديمة والحديثة » (ص ١٠٩) . وما لبثت هذه الیقظة ، التي بدأت في كل من أسبانيا وإيطاليا ، بتأثير الحياة الأدبية العربية القريبة منهما ، أن انتشرت في باقي دول أوروبا فظهرت لغاتها الكبرى ؛ إذ

« اقتضت الأمم الأوربية أثر الأسبانيين والطلليان في العدول عن اللغة اللاتينية إلى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . وأقبل الأدباء في إنكلترة على التأليف باللغة الإنكليزية ، وأصلح الفرنساويون لسان رومان [إحدى اللهجتين السائدتين في فرنسا في العصور الوسطى] وهذبوه ؛ فأصبح اللغة الفرنسية . واقتفى الألمان أثر من ذكر من الأمم ، ودونوا لغتهم الألمانية » (ص ١١٠ - ١١١) .

- فكان ظهور اللغات القومية بداية - في الوقت نفسه - للنهضة الأدبية التي ميزت عصر النهضة الأوربية .

ففي فرنسا ، ظهر « ألكسندر هاردي [Alexander Hardy] ، وهو أول من أصلح فن التمثيل واللعب على المسارح ، واتخذ الروايات الأسبانية نموذجاً له ، ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنسية ، وشخصها على مسرح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م » (ص ١١١) . وقد تعرّف الفرنسيون - في تلك الأثناء - على أدبي اللغتين

اليونانية واللاتينية ؛ فلما درسوها «زانتعشت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم ،
حذوا حذو شعراء اليونان والرومان ، واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها
من كلمات أخرى فرنساوية ، وربما ترجموا أبيات شعرهم [أي شعر اللاتين
واليونان] ، وسرقوا معانيهم وصاغوها في ألفاظ فرنساوية من الطبقة العليا ..» (ص
١١١) . وكانت هذه الحركة بداية نشأة المدرسة الكلاسية (أو الطريقة المدرسية ، في
مصطلح الخالدي) بل سبيلها إلى الإبداع على مدى تاريخ ازدهارها .

وأما في إنجلترا ، وقبل ظهور الأدب الإنجليزي ، فقد كان « الإنكليز أنفسهم
يعتنون بأشعار المداحين وشعراء الرابة من الفرنسيين . وكانت اللغة الفرنسية
لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ - ١٠٨٧ م) ومن خلفه
عليهم من السلالة النورماندية ؛ ولذا بقيت الكلمات الفرنسية مستكثرة في اللغة
الإنكليزية .. » (ص ١٢٢) ، حتى نبغ فيهم الشعراء الكبار ، وليم شكسبير W.
Shakespear (١٥٦٤ - ١٦١٦ م) ، وجون ميلتون J. Milton (١٦٠٨ - ١٦٧٤ م) ؛
حيث « مال أديباؤها لقراءة الأشعار القومية الدارجة ، التي نظمها في القرون
الوسطى الزوبادور والزوفير [شعراء شعبيون جوالون] ، وهم من شعراء الرابة
المعاصرين لعرب الأندلس ، وأوجدوا للشعر شكلاً جديداً وأسلوباً مبتكراً » (ص
١٢٦) . وكان هذا بداية النهضة الأدبية في إنجلترا الحديثة .

ولم يكن الأمر في ألمانيا يختلف كثيراً ؛ فقد كان « الأمراء والأعيان في ألمانيا مكبين
على تحصيل الأدب الفرنسي ، وعلى حفظ الأشعار الفرنسية والتمثل بها ،
والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومجتمعاتهم ، وضيافتهم ، تشبهاً بملوك
بروسيا ، وبما في القصر الملوكي^(١) بربلن .

وكان لفردريك الثاني ملك بروسيا إعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتر [Vottire]
الفرنساوي ؛ فقربه إليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل ، كانت بضاعة الأدب
الفرنسي رائجة عند الألمان كرواجها عند الروس .. » (ص ١٢٧) . هذا ، مع أن
الألمان كانوا يملكون - في لغتهم - « أغاني هيلد براند » من القرن التاسع ، و« وديوان
نيبلونجن » الذي جمع في القرن الثالث عشر ، ثم ترجم الكتاب المقدس نفسه إلى اللغة
الألمانية .

(١) في النص : الملوك ؛ ولا تستقيم

وقد ظل إعجاب الألمان بالأدب الفرنسي ولغته قائماً حتى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٠ - ١٧٨٠ م) ، حيث ظهر في ألمانيا كل من جوته وشيلر وليبنج؛ فانقلبت بظهورهم الأوضاع ، و « بعد أن كان الألمان في الأدب عيالاً على الفرنسيين ، وليس عندهم من المؤلفات إلا ما هو ترجمة أو تقليد لما حُرر بالفرنساوية... صاروا أئمة في الأدب يقتدى بهم وينسج على منوالهم » (ص ١٣٠) ، حتى أن نابليون الأول اجتمع بمجوته حين دخل برلين ، وحادثه طويلاً ، وأنعم عليه بـ « نيشان الافتخار » ؛ « فاجتهد نحو مؤلفاته أفكار الأدباء من الفرنسيين » (ص ١٣٣) . وكانت نتيجة هذا الانفتاح على ألمانيا من جانب الفرنسيين أن انتقل الأدب الفرنسي إلى مرحلة جديدة - رومانسية - على يد كل من شاتوبريان Chateaubriand (١٧٦٨ - ١٨٤٨) ومدام دي ستال Mme. De Stael (١٧٦٦ - ١٨١٧ م) ، التي « كتبت كتاباً مفيداً عن ألمانيا [De L'Allemagne] ، وكتبت عن « الأدب باعتبار ماله من العلاقات بتشكيل الهيئة الاجتماعية [De la Litterature Considerée dans ses Rapports avec les Institutions Sociales] » (ص ١٣٤) .

وهكذا كانت التفاعلات مستمرة بين الآداب الأوربية منذ مطلع عصر النهضة وإلى وقت كتابة الخالدي لكتابه - وما تزال ، بطبيعة الحال ، إلى اليوم - يأخذ بعضها يوماً ليعطى في يوم آخر ؛ فتتشط - بهذه التفاعلات فيما بينها - الآداب الأوربية جميعاً ، كما نشطت - بل نشأت - قبل ذلك بالتفاعل مع الأدب العربي ، وغيره من الآداب الشرقية كما رأينا .

- ٣ -

ولا يقف الخالدي عند هذا المستوى من المقارنة التاريخية بين الآداب المختلفة ، وحده ، بل ينتقل إلى المستوى الثاني - غير التاريخي - الذي يرصد ، أو يشير ، مجرد إشارة إلى وجه أو أكثر من وجوه الاتفاق أو الاختلاف بين الآداب المختلفة كذلك ، دون بينة تاريخية على تفاعلات حدثت بين العاملين اللذين يشير إليهما ، ولو حدثت تفاعلات بين الأديين بعامة .

من هذا القبيل نجد إشارات الخالدي إلى ما بين « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري (٣٦٣ - ٣٣٩ م) والكوميديّة (أو المضحكة أو الألهيّة) الإلهيّة - The Divine Comedy « لدانتي من خلافات .

ففي معرض نعي الخالدي عل الكتاب والشعراء العرب أنهم لم يكتبوا إلا «للعواص من علماء الرجال وأدبائهم ، ولأصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه؛ ولذا فهو [يعني الكاتب أو الشاعر] يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة ، ويتقني أعلى طبقات الكلام وأعوصها في اللغة » - يجد الخالدي الفرصة ليضرب المثل بأبي العلاء المعري ورسائله ، مقابلاً إياها بكوميديا دانتي ؛ فيقول :

« .. فالمعري ، على ما له من جلالة القدر في الأدب ، لم يَسْقِنَا الحكمة من كاسه إلا وهو يهوص في المباحث اللغوية ، ويأتي بالشواهد والأمثال ، كما يتضح لمن طالع «رسالة الغفران» ، وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر [باريس ١٧٩٨م] برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمتها وآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ، ليس فيها تصنع في الألفاظ والتراكيب ، ولا فيها احتياج إلى تفسير الألفاظ اللغوية و[لا] الاستشهاد بالكلام المعروض » (ص ٦٦) .

فالمعري ، وإن كان حكيماً ، فحكيمته مسوقة في سياق - في رأي الخالدي - يتعب قارئه ؛ فهو لا يخلص إلى ما يريد إلا بعد « الغوص في المباحث اللغوية » والإحالة على التراث السابق عليه من « الشواهد والأمثال » . أما رسالة دانتي (ولأ ندرى لماذا النص - هنا - على « الجحيم » وحدها !) فهي مبنية على « نسق واحد » ، و « بلا تصنع في الألفاظ والتراكيب » ، ودون تعالم على المتلقي بحيث يحوجه إلى « تفسير الألفاظ اللغوية » أو البحث عن مغزي « الكلام المعروض » .

وكانت هذه إشارته الأولى إلى بحث قدّمه عبد الرحيم أفندي أحمد ، مندوب مصر إلى ذلك المؤتمر ، وفي ذلك الوقت المبكر ، عن « التشابه » بين « رسالة .. » المعري و« كوميديا .. » دانتي . وهذه - كذلك - هي الإشارة الأولى في الكتابات العربية الحديثة إلى « رسالة الغفران » في تراث المعري ؛ إذ يبدو أن عبد الرحيم أحمد «اكتشفها» وقدم اكتشافه إلى المؤتمر ، ووعد بنشر الرسالة ، كما سيشير الخالدي نفسه فيما بعد .

ويعود الخالدي - بعد ذلك - مرتين إلى هذه « المشابهة » ؛ كانت أولاهما حين يعرض لنشأة الأدب الإيطالي ، الذي يعد دانتي وكوميدياه البداية الحقيقة له . وبعد أن يعرض لموضوع «الكوميديا الإلهية» يقول عنها إنها « أشبه برسالة الغفران التي

حررها المعري قبل تأليف «الكوميديّة الإلهية» بأكثر من قرنين ، وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد أصحابه الأفاضل في حلب .. » ، ثم يعرض لموضوع الرسالة دون إشارة إلى بحث عبد الرحيم أحمد أو تعليق على موضوعي « الرسالة » و« الكوميديا » (راجع ص ١٠٩ - ١١٠) . وفي المرّة الثانیة يذكر عبد الرحيم أحمد - بالاسم هذه المرّة - ويبحثه ، الذي عرّف فيه برسالة الغفران و«بين مشابقتها بالكوميديّة الإلهية» (ص ١٤١) ، دون تعليق - أيضاً - يزيد على موضوع «المشابهة» بين العملين . لكنه ذكر أن عبد الرحيم أحمد وعد بنشر الرسالة^(٢٣) ، لكنه - فيما يبدو - لم يفعل ذلك أبداً^(٢٤) !

وحين يستعرض الخالدي تاريخ الشعر العربي يذكر أن كلاً من المتنبي وأبي العلاء وقبلهما أبو تمام كانت لهم طريقة جديدة في الشعر ، أثارت معركة نقدية كبيرة بين أنصار القديم وأنصار الجديد . وقد شبه هذه المعركة التي نشأت حول «المجددين» من المولدين في الشعر العربي القديم بالمعركة التي شنّها أنصار القديم - «أصحاب طريقة كلاسيك» ، بتعبير الخالدي - على فيكتور هوجو « حينما شهر طريقة (رومانتيك) .. » (ص ٥٥) . وإن كان موقف الخالدي من المعركتين لم يكن متسقاً مع نفسه ؛ ففي الوقت الذي كان فيه شديد الحماسة لفكتور هوجو والرومانسيين في هجومهم على الكلاسيكية ، كان متحفظاً ، بل أميل إلى الهجوم ، على شعر المولدين وتجديداتهم في الشعر العربي !

ويتابع الخالدي هجوم المستشرقين - الذين يسميهم : « أدباء الإفرنج » - على الأدب العربي ، من منظور الإغراق في الصنعة ، الذي حال بين الأدباء العرب وإدراك « الوحدة » و « الاتساق الأسلوبي » - إذا جاز التعبير ! - في أعمالهم ، بخاصة إذا وضعت هذه الأعمال بإزاء « الشعر اليوناني والإفرنجي » ، الذي يكون كله « على نفس واحد ، ونسق واحد » ، سواء في موضوعاته ، أو في أسلوبه الفني ، أو حتى في أهدافه . فالأعمال المسرحية الغريبة - القديمة أو الحديثة ، المأسوية أو الملهوية - محددة الهدف ، متكاملة البناء ، في حين أن أمثال الحريري والهمداني ، في مقاماتهما « لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على أسلوب الكوميديّة ، ولا رواية مخزنة على نسق التراجيكية ، وإنما قصدوا إظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتديججه بديباج الاستعارات ، وإلباسه حُلل التشابيه ، وترصيعه بلآلئ البديع ... » .

وكان الخالدي يريد أن يقول إن إغراق هذين الأديبين الكبيرين ، وأمثالهما ، في القديم أو الحديث^(*) ، في الصنعة اللغوية والبديعة ، حرم الأدب العربي - حتى عصره - من إنجاز فن أدبي فيه تماسك المسرحية - أو القصة - في بنائها وأهدافها .

وفوق هذا كله ، فثمة هذا « التهتك الخُلقي » الذي نجده في المقامات ، في صورة الغزل بالمذكر ، و « وضع الحب في غير موضعه الطبيعي » . وهو ما يندر وجود مثله في إبداع « أدباء الإفرنج المشهورين » ! وهي ملاحظة لاحظها الطهطاوي من قبل ، تكشف عن الحس الخُلقي المرفه عند الكاتبين .

ويقف الخالدي عند مسرحية « تارتوف » لموليير ، فيقول إنها « من أحسن ما ألّفه موليير في المضحكات .. » ، وهو [يعني : تارتوف] رجل مرآتي في نسكه وعبادته ، أغفل^(*) أحد المتولين من البسطاء واستولى على أمواله وعياله ؛ فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخُبث . وقد أتى المعري بأبيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية ، كقوله :

وليس عندهم دينٌ ولا نُسُكٌ (فلا تَقْرُنْكَ أَيْدٍ تَحْمِلُ السُّبُحَا)
وكم شيوخٌ غَدَوْا بيضاً مفارقهم يسُبِّحون ، وباتوا في الخنا سُبُحاً^(*)

(ص ١١٤)

وفي موضع آخر ، يعود الخالدي إلى الشخصية نفسها ، ليقول إن « تارتوف » ليس فيه « شئ من الظرف والجمون ، ولا العلم والأدب ، المتصف بهما أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري .. » (ص ١٢٣) ، دون أن يلاحظ الخالدي أن الدور الفني والإنساني المنوط بكل واحد منهما في مجاله الحيوي (عالم المسرحية ، عند موليير ، وعالم المقامة ، عند الحريري) يفرض هذا الاختلاف في الطبيعة ، الثقافية وال نفسية ، ومن ثم السلوكية ، لكل واحد منهما .

ويضع الخالدي المقدمة الشهيرة التي كتبها فيكتور هوجو لمسرحية « كرومويل » ، والتي وضع فيها هوجو أسس الحركة الرومانسية ، والتي يُفهم منها - عند الخالدي - « أن الطريقة الرومانية [الرومانسية] أرجعت الشعر إلى الحقيقة والطبيعة والحياة ، وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام وأجراس الألفاظ .. » (ص ١٥٨) - يضع

(*) كذا ! يريد : استغفله .

الخالدي هذ المعني بإزاء ما ذكره « أئمة البلاغة والأدب في لسان العرب ، كأبي بكر الباقلانيّ ، وعبد القاهر الجرجانيّ ، وابن خلدون ، وأمثالهم . ولا حاجة إلى إيراد أقوالهم في هذا الباب ؛ فإنها معلومة ، ومحصّلة : وجوب نصرة المعنى على اللفظ ؛ لأن الألفاظ خدم المعاني » (ص ١٥٩) .

كما يضع قول الرومانسيين إن شرط « السالك نهج الطريقة الرومانية أن يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور وإحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع .. » (ص ١٣٦) - بإزاء قول ابن رشيق إن « من بواعث الشعر العشق والانتشاء ، ومن شروطه الخلوة ، واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار ، وكذا المسموع من غناء البلابل وطين الأوتار »^(٢٧) . وكذلك قولهم إن الشاعر يشارك متلقيه في كونهم بشراً ، لكن « يزيد الشاعر عنا باقتداره على الإبانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا ؛ لأن له سجية الشعر ، ومَلَكة راسخة في التعبير عن شعوره وإحساسه » - بإزاء قول ابن خلدون إن « المعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ؛ فلا يحتاج [يعني الفكر] إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها [أي عن المعاني والأفكار] هو المحتاج للصناعة . فالذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعاني فهي في الضمائر »^(٢٨) (ص ١٦٣) .

ومرة أخرى يعود الخالديّ إلى المعريّ ، في معرض تقديمه للطريقة « الرومانية » أو الرومانسية ؛ فهو يرى في المعريّ ، ومن سلك مسلكه من الشعراء

« .. اهتماماً زائداً بأمر الآخرة وبما بعد الموت ، وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والأرض ، ودهشة مقلقة ، وحيرة زائدة ، وانفعالات نفسانية ، وإحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقدّه لحاسة البصر ، التي لها المكانة في هذه الطريقة ، لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لايقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا حاجة لإيراد مثال على كلام المعري ؛ فإن كل كلمة من اللزوميات تُشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والإحساس ، والتألم ألماً يهون معه الموت ، ولا تحسب بجانبه مصيبة .. » (ص ١٦٦) .

هذه الروح الحساسة ، القلقة ، التي تميز أبا العلاء عند الخالدي ، وتربطه بالروح نفسها عند الرومانسيين - أو شكت أن تجعله واحداً منهم - مع أنه سابق عليهم ! - لولا

فقدانه لحاسة البصر التي أعانتهم على وصف الطبيعة . ويميز تميز هذه الروح العلائية ، في قلقها وحيورتها وعدم يقينها ، بل تشككها ، حين يوازن الخالدي بينها وبين روح كاتب آخر ، كالجاحظ ، الذي يدعو لقارنه ، في مفتح كعبه ، بتجنب الشبهة ، وحبّ الثبّت ، والاستمتاع ببرد اليقين !

وعلى ما يبدو في هذه الورقة من طول ، فالحقيقة أنها لم تحط بكل الملاحظات التي أبداهها الخالدي في هذا السياق ، غير التاريخي ، من « مقابلاته » . فهو يدي في خلال « قراءاته » لأعمال فيكتور هوجو - التي يتناولها عملاً عملاً بحسب ترتيبها التاريخي - الكثير من هذه الملاحظات التي تربط - بخاصة - بين المعاني التي طرحها هوجو في أعماله وسبقه إليها أبو العلاء المعري في شعره . غير أنها جميعاً لا تخرج عن السياق العام الذي وضعناه ، والذي يربط بين « المعاني » المتشابهة في كل من الأدب العربي القديم والأدب الفرنسي ، بخاصة ، أو يبين تباعدها ، دون تساؤل ، كما أشرنا ، عن إمكان تأثير المتقدم منهما - أبو العلاء - في المتأخر - هوجو .

- ٤ -

وهكذا نجد الخالدي - بقسم من كتابه هذا - في قلب المفهوم الفرنسي للأدب المقارن - الذي عرفه معرفة تامة من خلال وجوده ، لمدة طويلة ، في قلب الحياة الثقافية الفرنسية ، بخاصة وأن العلم كان قد تبلور ونما في عصره . فهو لا يشير إلى الظواهر المؤسسة تاريخياً للتأثير والتأثر بين أدبين أو أكثر فقط ، بل يكشف - كذلك - عن مراكزها ودلائلها ، سواء - فيما يخص تأثير الأدب العربي في الآداب الأوربية - في الأندلس وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية ، أو في الشرق نفسه زمن الحروب الصليبية ، أو في ترجمة الأعمال الشرقية إلى اللغات الأوربية .. إلخ . وهو لا يتناول ظواهر التأثير والتأثر التاريخية بين الآداب فحسب ، بل يتناول أيضاً تأثيرات الحياة الأدبية في أمة على مثلها في أمة أخرى ، بل يمس موضوع تصور شعب لشعب آخر .. إلخ .

وهو لا يعتمد في رسم هذه الصورة الواسعة على قراءاته وحدها ، بل يعتمد - كذلك - على الرحلة والمقابلة والحديث .. إلخ .

ثم هو لا يعتمد هذه النظرة وحدها ، كما رأينا ، في « المقارنة » بين الأدب الفرنسي ، والأوربي بعامة ، والآداب الشرقية ، بل يعتمد نظرة أخرى « حرة » يقابل

فيها بين « المعاني » أو « الروح » المتشابهة في الآداب الغربية ومثيلاتها في الأدب العربي وهي ما اتفقنا على تسميتها - تمييزاً لها عن النظرة الأولى ، التاريخية - بـ «المقابلة» .

وكان الخالدي أراد - بهذه المباحث المتنوعة في « المقارنة » و « المقابلة » - أن يصيب عدداً من الأهداف في وقت واحد . إذ فضلاً عن الأهداف المعلنة ، من الرغبة في التعريف بالأدب الإفرنجي ومدارسه (قدم - بإسهاب - كلاماً من « الطريقة المدرسية - الكلاسيكية Classicisme - و « الطريقة الرومانسية » - الرومانسية Romaticisme - و « الطريقة الحقيقية » أو « الطبيعية » (ناتوراليزم) Naturalisme^(٢٩)) ، ثم التعريف بفيكتر هوجو بوصفه أبرز أعلام الأدب الإفرنجي في عصره^(٣٠) - إلى جانب المقابلة بين الأدب الإفرنجي والآداب الأخرى ، الشرقية والأوربية .. إلخ - أقول فضلاً عن هذا كله فقد أراد أن يوسع من دائرة الأدب العربي بفتح آفاق جديدة من الإبداع أمامه ، سواء بفنون كانت جديدة فيه ، كالقصة والمسرحية ، أو بأفكار ومعانٍ جديدة ، أو بأساليب جديدة .. إلخ . وهو إذ يفعل ذلك ، ما كان يقصد - إطلاقاً - إضعاف هذا الأدب في مواجهته لهذا الأدب الجديد الوافد ، بل لقد أراد أن ينفي فكرة المواجهة أصلاً ، ويؤكد - بديلاً عنها - فكرة « التفاعل » و « الاستفادة » . ولئن كان الأدب العربي - اليوم - في موقف الأخذ عن الآداب الغربية ، فلقد كان من قبل في موقف المعطي لهذه الآداب نفسها؛ فأخذت منه ، وقويت بما أخذت ، ونمت بما استوعبت منه وطورته حتى أصبحت في مكان المعطي للآداب الحديثة . وهي لم تحتل هذا المكان بتفاعلها مع الآداب العربية والشرقية وحدها ، بل بتفاعلها - كذلك - مع بعضها البعض ، أخذاً وعطاء .

فالتفاعل والاحتكاك والاستفادة من كل ما يمكن الاستفادة منه عند الآخرين هو دليل حيوية ونشاط ، وعلامة صحة وعافية ، ومنهج تطور ونمو مستمرين ، وليس - على العكس - دليل تخاذل أو ضعف أو ثبات .

وقبل هذا كله ، وبعده ، يظل الأدب عطاءً إنسانياً مشتركاً يجمع - في أكثر الأحيان - بين الأدباء في مختلف العصور والبيئات والثقافات على أفكار قد تشابه في ملامح كثيرة ، أو تختلف ، أو تلتقي في أجزاء منها وتختلف في أجزاء أخرى ، دون أن يكون ثمة احتكاك تاريخي ، ودون أن يدعى أحد الأديين سبق أو الأفضلية على الآخر .

ولاشك في أن الخالدي - بهذين المدخلين معا - كان يعمل على تخفيف كثير من الحدة التي تكتنف اللقاء بين الحضارتين ، وكثير من المعارضة التي واجهت الاستفادة من الأدب الغربي في تطوير الأدب العربي وتحديثه وتوسيع آفاق الإبداع فيه .

وإن كنا لابدّ وأن نشير إلى أن تجميع هذه الملاحظات - السالفة - وتصنيفها على النحو الذي صنفاه ، احتاج إلى الكثير من الجهد ؛ لأنها مباحث لا تجتمع - في الكتاب - تحت عنوان واحد أو أكثر من عنوان بل تنتشر على مساحة الكتاب كله ، من جهة ، فضلاً عن كثرة تكرار المعلومة الواحدة أو الفكرة الواحدة أو الرأي الواحد أكثر من مرة ، في أكثر من موضع من الكتاب ، من جهة أخرى ، ويضاف إلى هذا كله الطول المفرط - في بعض الأحيان - في المقدمات التاريخية التي من المفترض ألا تشكل - بالنسبة إلى الكاتب وموضوعاته - إلا مداخل قصيرة يخلص منها إلى موضوعاته الأصلية .

ومع هذا ، فلا جدال في عظم الجهد الذي قام به الخالدي في كتابه هذا ، بعامه ، وفي المباحث المقارنة والمقابلة بخاصة . ولا جدال أيضاً في إحاطته الواعية بالمادة الأدبية - العربية وغير العربية ، من شرقية وغربية - التي تعامل معها ، ثم بالقضايا التي أثارها - في هذا المجال بخاصة - حتى أن كثيراً منها أصبح - فيما بعد - من « أدبيات » الأدب العربي المقارن^(٣١) ، وبالتناجح التي توصل إليها .

ولاجدال - كذلك - في أن هذا كله يجعل من الخالدي أحد الرواد البارزين في مجال الدراسات المقارنة في الأدب العربي الحديث ، لكنه لا يجعله بجال - مع تقديرنا البالغ لكل ما فعل ، وإعجابنا ، الذي لا نخفيه ، به - الرائد الأول للأدب المقارن في العربية ، ولو اعترفت بهذه الريادة ندوة جامعية عن الأدب المقارن ، وجعلت الاعتراف بهذه الريادة توصية بارزة من توصياتها^(٣٢) ! . فإنصاف الرجل - وهو مستحق للإنصاف - لا ينبغي أن يكون على حساب جهود آخرين سبقوه إلى الميدان - أيا كان وعيهم النظري بما يفعلون ، وأيا كانت القيمة النهائية لهذه الجهود - بخاصة وأنها كانت جهوداً بارزة ، ولرجال في حجم رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك وأديب إسحق ونجيب الحداد ويعقوب صرّوف وسليمان البستاني ، ولا نذكر الرجل الذي ذكره الخالدي نفسه وأضاعه التاريخ ، أعني عبد الرحيم (أفندي) أحمد المبعوث المصري إلى مؤتمر المستشرقين الحادي عشر ، والذي كان - كما أشرنا - أول من طرح فكرة

المشابهة بين « رسالة الغفران » للمعري (بل هو - فيما يبدو - أول من ذكر « الرسالة » أصلاً) و « الكوميديا الإلهية » لدانتي ، ليفتح - بهذا الطرح - الباب واسعاً أمام الباحثين - الغربيين والعرب - لمحاولة الإجابة عن السؤال عن مدى تأثير دانتي بالمصادر الإسلامية المختلفة ، وحدود هذا التأثير . فضلاً عن أن الخالدي كان مسبقاً في كثير من الموضوعات التي أثارها في وقفاته عند تأثير الأدب العربي - أو الثقافة العربية بعامة في الأدب والثقافة الغربية ، بوقفات للطهطاوي وعلي مبارك والحداد . فالطهطاوي «أشار» إلى خلو الأدب العربي الأصيل - كالأدب الفرنسي - من الغزل بالمذكر ، وإلى ما بنين « أدب الفروسية » العربي ومثيله الفرنسي من تشابه كما أشار مبارك إلى أثر الحروب الصليبية على تقدم الغرب وانتظامه . ثم أشار الحداد إلى مشابهة الأوزان الشعرية المتنوعة والقوافي المختلفة في الشعر الغربي للأوزان والقوافي في الموشحة الأندلسية ، و إلى أن الشعر العربي ظل - طوال تاريخه - يلتزم « الحقيقة وواقع الأمر » حتى جاء المتنبي ومن بعده ؛ فأخذ يميل إلى المبالغات .. إلخ . كما أن الحداد استعان في كلامه بمقدمة هوجو الشهيرة لمسرحية « كرمويل » ، التي سيزجها الخالدي كاملة .

إن القيمة الحقيقية لكتاب الخالدي هي في تجميع هذه القضايا متصلةً ، ووضعها في سياقها التاريخي من مسيرة الأديين : العربي والإفريقي ، الأمر الذي وسّع مجال رؤيته لها ، وإقناع القارئ بها ، مع عدم إنكار جدة ما أثاره من قضايا غيرها كان السباق إليها ، كأثر الكلاسيين في الأدب التركي الحديث ، وأثر الأدب الفارسي على الآداب الغربية الحديثة ، ثم التفاعلات بين الآداب الغربية الحديثة نفسها ... إلخ .



مواشع وطابعات :

- (١) أديب إسحق الكتابات السياسية والاجتماعية ؛ جمعها وقدم لها ناجي علوش ؛ دار الطليعة، بيروت ط ٢ / ١٩٨٢ م. ص ٨ .
- (٢) السابق ، ص ٩ .
- (٣) السابق ، ص ١٤ وما بعدها .
- (٤) السابق ، ص ٩ . وينص علوش على أنها « زهرة الآداب » ، وهي في « الدرر » : « زهر» الآداب ، وهو الأصوب .
- (٥) السابق ص ٣٦٤ ، هامش ١ .
- (٦) أديب إسحق : الدرر ، وهي منتخبات الطيب الذكر ، الخالد الأثر أديب إسحق ؛ جمعها جرجس ميخائيل نحاس ، وطبع ببنفقة جامعها و خليل أفندي النقاش بمطبعة جريدة الخروسة بالإسكندرية ١٨٨٦ م . من خطبة ألقاها في جمعية زهر الآداب بعنوان : اليونان والرومان ، ص ١٢ ع ٢٤ . قارن ناجي علوش : السابق ، ص ٣٦٤ ، مع العلم بأنه بتر « الخطبة » بتراً لاندري له سبباً؛ إذ لا يورد القسم الخاص بـ « المقابلة » منها . لأنه وضع عنواناً جانبيّاً للخطبة هو « التاريخ » ؛ فأراد أن ينطبق موضوعها على العنوان الذي أضافه ؟ أم لأنها جاءت مبتورة هكذا في الطباعات الأخرى - التي لم أرها - للدرر ؟ الله أعلم !
- (٧) الدرر ، ص ١٢ ع ١٤ . قارن علوش ، ص ٣٦٤ .
- (٨) السابقان ، نفساهما .
- (٩) الدرر ، ص ١٤ - ١٥ . علوش ، ص ٣٦٤ .
- (١٠) الدرر ، ص ١٧ ، ع ٢٤ . ولا يرد هذا ولا ما بعده في علوش ؛ ولهذا ستكون الإشارات التالية قاصرة على الطبعة الأولى من الدرر ، في المتن .
- (١١) نظن أن إسحق يستخدم كلمة « الموازنة » - هنا - بديلاً من « المقابلة » التي استخدمها منذ البداية ، ولم يكن في ذهنه هذا التفرقة بين المعني الاصطلاحي

للكلمتين ؛ من حيث تقتصر « الموازنة » على عمليتين في لغة واحدة ؛ في حين أن « المقارنة » أو « المقابلة » تتحرك بين عمليتين أو أكثر في لغتين - أو لغات - مختلفة ، كما شاع بعد هذا . راجع - في الفرق بين الموازنة والمقارنة - د. أحمد كمال زكي ، الأدب المقارن ، ص ٢٢ وما بعدها . د. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص ١٩ ، مثلاً .

(١٢) غني عن البيان أن نقول إن المصطلحات في مجالنا هذا لم تكن قد ضبطت بعد . وقد أشرنا من قبل إلى أن المصطلح الأشيع - هنا - هو « المقابلة » ، ولو كانت « مقارنة » تاريخية . ومع أن « الموازنة » من المصطلحات النادرة في هذا السياق ، ولكنها تظهر ، وإن على فترات بعيدة ، مع اختصاصها - بإجماع - بتناول عمليتين في لغة واحدة . راجع الهامش السابق .

(١٣) راجع د. محمد مندور : الكلاسيكية والأصول الفنية للدراما ، نهضة مصر ، د. ت. ص ٤ .

(١٤) هو محمد روهي بن ياسين الخالدي ، المقدسي المولد والموطن . ولد عا. ١٨٦٤ ، وتقل - في تعليمه - بين مدارس القدس ونابلس وطرابلس الشام والآستانة وبيروت . انتسب إلى «المكتب الشاهاني» في الآستانة سنة ١٨٨٩م ، أثناء وجود جمال الدين الأفغاني بها ؛ فتردد على مجلسه ؛ فاشتدت المراقبة عليه ؛ ففرّ إلى باريس ليلتحق بمدرسة العلوم السياسية بها ، حيث أتم دروسها في ثلاث سنوات . بعدها ، عين مدرساً في جمعية نشر اللغات الأجنبية في باريس حيث ألقى محاضرتين عن : « الإسلام في هذه الأيام » و « المسألة الشرقية » . ولما عاد إلى الآستانة صدرت الإرادة السنية في عام ١٨٩٨ بتعيينه قنصلاً عاماً للدولة العثمانية في مدينة بوردو وتوابعها . وقد بقى في هذا المنصب نحو عشر سنوات ، عاد بعدها - عقب إعلان الدستور العثماني (يوليو ١٩٠٨) - إلى القدس ؛ فانتخبه أهلها نائباً عنهم في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) لثلاث مرات ، وانتخب نائباً لرئيس المجلس حتى حُلّ في عام ١٩١٢م ؛ فعاد إلى القدس ، ثم إلى الآستانة مرة أخرى ، فتوفى بها بحمى التيفوئيد في السادس من أغسطس عام ١٩١٣م .

ونشر للخالدي ، غير كتابنا هذا ، المحاضرتان اللتان ألقاهما في جمعية نشر اللغات الأجنبية بباريس ، ومقال عن « برتلو : العالم الكيماوي الشهير » . و« حكمة التاريخ » ومقالتان عن « الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة » وكتيب عن « الكيمياء عند العرب » وترك مخطوطات لكتب عن : « الرحلة إلى الأندلس » و« علم الألسنة أو مقابلة اللغات » ، و« تاريخ الصهيونية » ، و« تاريخ الأمة الإسرائيلية وعلاقتها بالعرب وغيرهم من الأمم » و« تراجم العائلة الخالدية » ، لا يعرف عنها الآن شيء .

في ترجمته ، راجع ، د. ناصر الدين الأسد : محمد روجي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ؛ الفصل الثاني بخاصة .

قارن أيضاً : عادل مناع : أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ - ١٩١٨م) ؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ط. ثانية ١٩٩٥م ، الترجمة ٧٨ ، ص ١٥٢ وما بعدها .

(١٥) طبع الكتاب في حياة المؤلف مرتين ؛ الأولى في مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٤ ، مثبت عليها - بعد العنوان : تأليف : المقدسي . والثانية في مطبعة الهلال أيضاً ، ١٩١٢ ، وتحت العنوان : تأليف روجي بك الخالدي ، الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه ، وهي الطبعة التي نشرها د. حسام الخطيب ، دمشق ١٩٨٤ ، وقدم لها .

وبين يدي الطبعة الأولى - ١٩٠٤م - من الكتاب ؛ فإليها تعود الإحالات في المتن ، مع إضافة علامات الترقيم والتمييز ، حيث تكون الحاجة ، وما بين المعقوفتين لي أيضاً .

(١٦) يعني الخالدي ما ورد في معلقة امرئ القيس عن وصف الفرس . وهو القسم الذي يبدأ بقوله :

وقد أغتدي والطير في وُكُناتها بمنجرد ، قيد الأوابد ، هكل

وبعده عشرة أبيات (راجع : أحمد بن الأمين الشنقيطي : المعلقات العشر وأخبار قائلها ، المطبعة الرحمانية ، ط . ثالثة ١٣٣٨ هـ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

والقاضي الزوزني : شرح المعلقات السبع ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٣ - ٢٧) . وما ورد في «سفر أيوب» من العهد القديم ، الإصحاح ٣٩ ، من رقم ١٩ إلى ٢٥ . (الكتاب المقدس بعهدية ، مكتبة الكتاب المقدس ، القاهرة) .

و«أيوب» - عليه السلام - صاحب السفر المذكور ، عند كثير من المحققين ، نبي عربي ، كان في تيماء . يقول العقاد : « فمن قبل أيام موسى كان النبي العربي «أيوب» في أرض تيماء يدين بالتوحيد .. » . الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ، المكتبة الثقافية (١) ، وزارة الثقافة ، القاهرة د. ت ، ص ٨٢ . راجع - في هذا الكتاب - القسم الثاني ، هامش رقم (٣٨) ، وفيه رأي جرجي زيدان في الموضوع ؛ حيث يرجح عربية أيوب .

وجرجي زيدان - وهو مسيحي ! - لا يقول هذا الكلام لمجرد التعصب للعرب . وإلا فالأجدر به أن يسلم بما ورد في السفر نفسه - الإصحاح الأول - من أن أيوب «رومي» من نسل عيص . راجع - أيضاً - دائرة المعارف الإسلامية ، دار الشعب ، د. ت. مادة : أيوب ، ج ٥ .

(١٧) راجع في موضوع «الإسرائيليات» في كتب التفسير ، مثلاً ، د. محمد محمد أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ؛ مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٤ . د. عبد الوهاب عبد الوهاب فايد : الدخيل في تفسير القرآن الكريم ؛ مطبعة حسان ، القاهرة ١٩٨٧ ، الجزء الأول ، الفصل الثالث : الإسرائيليات في التفسير ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(١٨) مقطوعة من ثلاثة أبيات ؛ راجع : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لليازجي ؛ دار القلم ، بيروت ص ٣ .

(١٩) الأدب الرعائي أو الرعوي Pastoral Literature : لون معين من الأدب ، الشعر والقصة والمسرحية ، يدور حول حياة الرعاة في بيئة ريفية ، واقعية أو مصطنعة . وقد عُرف الشعر الرعوي في اليونان القديمة ؛ فكتبه ثيوكرتيس ، ومن الرومان فرجيل ، ثم إدموند سبنسر وباركلي وملتون ، من الإنجليز .

وعن تأثير موسيقى الشعر العربي - وبخاصة الموشحات والأزجال الأندلسية - في

الشعر الغربيّ، راجع د. غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص ٢٦١ وما بعدها .
(٢٠) راجع الفصل السابع من الباب الثاني في : د. غنيمي هلال : الأدب المقارن
بعنوان : « تصوير الآداب القومية للبلاد والشعوب الأخرى » ؛ ص ٤٠١ وما
بعدها .

(٢١) Appollon: Appollo هو الاسم الرومانيّ للإله اليوناني فوبوس (دريني خشبة:
أساطير الحب والجمال عند الإغريق ؛ كتاب الهلال يونيو ١٩٦٥ ، ص ٤٢) .
ويقترن الاسمان أحياناً في اليونانية القديمة (راجع ب . كوملان : الأساطير
الإغريقية والرومانية، ترجمة أحمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ،
ص ٣٥ وما بعدها) . وكان للموسيقى والشعر والفصاحة والطب والنبوءات
والفنون (نفسه ، ص ٣٧) .

راجع أيضاً Robert Graves, The Greek Myths; Penguin Books, London
1980, PP. 55 - 56 .

(٢٢) راجع د. شوقي ضيف : الأدب العربي للعاصر في مصر ؛ دار المعارف بمصر ،
ط ثانية ١٩٦١ ، ص ١١١ . ولم أعثر على الترجمة في الديوان . راجع :
الشوقيات ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ، د . ت .

(٢٣) لم نعثر - للأسف الشديد - على أي شيء عن الرجل أو البحث ، على الرغم
من جهد البحث في مجلات شهيرة - حيثنذر - كالمثقف والهلال ، في العام
نفسه، والأعوام التالية . ولم يورد نجيب العقيقي في كتابه الموسوعي :
المستشرقون (دار المعارف ، ط . رابعة ، ٣ / ٣٦٦) ، في تقريره عن المؤتمر
الحادي عشر بباريس شيئاً عن البحث ، ولا حتى عنوانه . كما لم نجد عنه شيئاً
في كتابي «الأعلام» للزركلي و«معجم المؤلفين» لكحالة .

وهو - طبعاً - لم يطبع «رسالة الغفران» ؛ لأنها طُبعت للمرة الأولى - كما
أشرنا من قبل - بعناية أمين هندية بمصر سنة ١٩٠٣ .

(٢٤) على الرغم من عدم العثور على البحث ، أو حتى ملخص وافٍ عنه ، يبين
للباحثين اتجاه عبد الرحيم أحمد ، وما إذا كان اهتمامه قد انصب على بيان
«المشابهة» بين «الرسالة» و«الكوميديا» أو أنه تطرق لفكرة التأثير والتأثر -

على الرغم من هذا ، فيبقى لهذا الرجل - المجهول ١٩ - فضل السبق في إثارة الاهتمام بالموضوع - سواء في مطلق الاهتمام بـ « رسالة الغفران » أو في « المقارنة » بين « رسالة الغفران » و « الكوميديا الإلهية » ، وخاصة ، أو إمكان تأثير الثقافة الإسلامية - بعامة - في دانتى ، سابقاً بهذا المستشرق الأسباني أسين بلايوس في محاضراته التي ألقاها أمام المجمع اللغوي الملكي في أسبانيا ، عام ١٩١٩ م ، أو عبد اللطيف الطيباوي في كتابه « التصوف الإسلامي العربي : بحث في تطور الفكر العربي » راجع د. صلاح فضل : تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٤ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

راجع ، أيضاً ، مناقشة د. جابر عصفور لبحث محمد برادة عن كتاب الخالدي ، في : قراءة جديدة في تراثنا النقدي (النادي الأدبي بمكة ؛ المجلد الآخر ص ٥٥٨) ؛ حيث ينوه د. عصفور بأن بحث عبد الرحيم أحمد هو « أول بحث عرفه العالم عن المقارنة بين الكوميديا الإلهية أو الألعبية الإلهية ورسالة الغفران » . (وإن كان د. جابر قد سها وسمى الرجل (جمال) أنندي أحمد ، وقال إن المؤتمر الذي قدم له البحث كان الثالث ، وهو الحادي عشر ، كما نص الخالدي ونجيب العقيقي) .

(٢٥) لنذكر أن الخالدي كان يكتب في بداية القرن ، وأنه رأى - بالتأكيد - محاولات جرت على غمط المقامة العربية القديمة ، كالساق على الساق للشدياق ، وجمع البحرين لليازجي ، وأطباق الذهب لشوقي ، ولبالي سطوح لحافظ إبراهيم .. إلخ. وكان الخالدي أراد - هنا - أن ينبه ، ولو بشكل غير مباشر ، إلى « عبثية » هذه المحاولات ، وأن الأحدثى هو الالتفات إلى الفنون الجديدة - كالمسرحية والقصة - التي استفادها العرب من الغرب .

(٢٦) وهي مقطوعة من عشرة أبيات بعنوان : المراءون في الدين ؛ مطلعها :
دَعَوْا ، وما فيهم زالك ولا أحدٌ يخشى الإلهَ ، فكانوا أكَلَبًا نُبَحَا
راجع : اللزوميات ، ط . دار صادر ، بيروت ١٩٦١ ؛ ١ / ٢٩٢ .

(٢٧) ما يعزوه الخالدي - هنا - لابن رشيق ليس نصاً ، بل هو ما يستخلصه الخالدي من روايات جمعها ابن رشيق عن ذي الرمة وكثير والأصمعي عما يشحذ

القرينة لقول الشعر. راجع ابن رشيق : العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ط . خامسة ، ١ / ٢٠٦ .

(٢٨) راجع ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، نهضة مصر ، ط ٣ ، د. ت ، ٣ / ١٣١٢ .

(٢٩) على الرغم من أن الخالدي - في المدرسة الأخيرة - كتب المصطلح الفرنسي نفسه بالحروف العربية (ناتوراليزم) وترجمه مرة إلى « الطريقة الطبيعية » ومرة إلى « الطريقة الطبيعية الحقيقية » - قال د. حسام الخطيب في مقدمة نشرته المذكورة إن « الطريقة الحقيقية » مقابل Realisme ، ومن ثم مقابل « الواقعية ». والخالدي لا يذكر في كتابه Realisme قط ، لا بالعربية ولا الفرنسية ، من جهة ، ومن جهة أخرى يقول الخالدي إن « إمامهم إميل زولا » وزولا - بإجماع - « إمام » الطبيعة لا الواقعية ، مع عدم إنكار ما بين « الطريقتين » من تقارب واتصال ، غير أن التوحيد بينهما - كما لا يخفى - يطمس الحدود بين المصطلحات . راجع - في « المدرستين » - د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه ، نهضة مصر ، د. ت ، ص ٩٧ وما بعدها . د. مكّي : الأدب المقارن ، ص ٥٥٩ . د. غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص ٣٧٦ وما بعدها .

ويقول د. هاشم ياغي في كتابه : حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٠) : « ولقد كان الخالدي في تشييعه للمدرسة الرومانسية ، حين عرض في كتابه للكلاسيكية والرومانية وما بعدها من طبيعية ورمزية وإنسانية واضحاً » . والخالدي لم يتعرض للإنسانية Humanisme إلا بالاسم فقط . أما الرمزية - Symbolism - ويعني د. ياغي المدرسة الأدبية التي ظهرت في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر - فلم يذكرها الخالدي قط ، ولا حتى بالاسم ! ولعل د. ياغي سها حين رأى قول الخالدي (ص ١٣١) : « وجاء الفيلسوف الألماني هكل [Hegel] وفسر تفسيراً فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانسية ، وهو يبحث في الصور المختلفة

التي تقلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الأدب ، منذ نشأته الأولى إلى زمانه ، وهي (١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك) (٢) الطريقة المدرسية (٣) الطريقة الرومانية » . ومن الجلي أن هيجل لا يعني - هنا - تلك المدرسية الأدبية المعينة، المذكورة آنفاً (ولهذا عير عنها الخالدي بالصفة Symbolic ، لا بالمصدر الصناعي Symbolism) ، والتي قصدتها د. ياغي . لكنه يقصد طريقة في التفكير بدأ بها الإنسان «وتتمثل في الفن الشرقي والمصري [القديمين]، كانت السيطرة [فيها] للمادة على الفكرة - ولذا كان الجمال يتمثل في الأشياء الجليلة التي تبعث على الرهبة لضخامتها ، كالمعابد المصرية والقبور» . (د. غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، د. ت. ، ص ٢٩٤).

(٣٠) لم يكن الخالدي أول من قدم هوجو إلى العربية ، بل هو أول من استفاد في تفاصيل حياته وكتبه ، وإلا فقد قَدَّمَ هوجو - في مقال - بمجلة الهلال - يبدو أن جرجي زيدان نفسه هو كاتبه - في العدد العاشر من المجلد الأول أول يونيو سنة ١٨٩٣م فضلاً عن استعانة نجيب الحداد به في مقاله « مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفريقي » .

(٣١) سنجد كثيراً من الموضوعات التي أثارها الخالدي في الكتاب المرموق - وإن أفسدته الطباعة ١ - للدكتور محمد غنيمي هلال عن « الأدب المقارن » ، في حين استقلت موضوعات بكتب ، منها - على سبيل المثال - كتاب عبد الرحمن صدقي : الشرق والإسلام في أدب حوته ؛ المكتبة الثقافية - ١٠ ، دار القلم بالقاهرة ، د. ت .

(٣٢) الندوة كانت : « ملتقى الأدب العربي المقارن » في جامعة عنابة بالجزائر ١٤ - ١٩ مايو ١٩٨٣ . راجع المقدمة التي كتبها د. حسام الخطيب لنشرته للكتاب (دمشق ١٩٨٤) ، بخاصة القسم الثاني : « تاريخ علم الأدب وريادة الأدب المقارن » .



خاتمة

حاول هذا البحث ، بقدر ما أتيج له من الوقت والجهد والمادة العلمية ، أن يقدم صورة أقرب ما تكون إلى الدقة والحياة وإلى الإحاطة والشمول لجهود الرواد العرب ، ما بين الثلث الأول من القرن التاسع والسنوات الأولى من القرن العشرين ، في مجال «المقارنة» .

وقد لاحظ أن «المقارنة» لم تلتزم عند هؤلاء الرواد مفهوماً واحداً ، بل نجد مفهومين اثنين ؛ مفهوم ملتزم بأصول المقارنة الفرنسية ، التي تستند إلى المعطيات التاريخية الثابتة ، أو شبه الثابتة ، في رصد مواقف التأثير والتأثر ، وحدودها ، وعواملها ، بين الآداب - أو الظواهر الثقافية بعامة - في اللغات المختلفة ، وهو المفهوم الذي نجد جانباً من جهود الطهطاوي الريادية قائماً عليه ، مع ملاحظة لعلي مبارك ، ومحاضرة لأديب إسحق ، وجانب لا بأس به من جهود الرائد الفلسطيني روجي الخالدي . وقد أطلق البحث على الجهود الملتزمة بهذا المفهوم مصطلح «المقارنة» .

وأما المفهوم الآخر ، فهو مفهوم حر ، بمعنى أنه لا يقيد نفسه بهذه الرؤية «التاريخية» وحدودها ، بل ربما لم يسأل نفسه عنها قط ؛ ومن ثم فهو لم ينشغل بها . فهو مشغول - دائماً - بالسؤال عن أوجه التشابه أو الاختلاف بين آداب القوم وأدبنا ، سواء كان هذا في الموضوعات أو الأفكار أو الأساليب الفنية ... إلخ ، في محاولة - ربما - لتقريب فكر الأوربيين وآدابهم من القارئ العربي ، وكسر حدة الغربة التي تعزل هذا القارئ عن هذه الأعمال . وربما - كذلك - لكسر الشعور بالدونية أمام هذه الأعمال ، الدالة على حضارتها المنتصرة . وهنا نجد ملاحظات للطهطاوي ، وواحدة لمبارك ، ومقالاً لنجيب الحداد ، ومقالين ليعقوب صروف ، مع الملاحظات التي ضمتها المقدمة الضافية التي كتبها سليمان البستاني لترجمة «الإلياذة» لهوميروس . وقد أثار البحث أن يخص الأعمال التي تنضوي تحت هذا المفهوم بمصطلح «المقابلة» ، تمييزاً

لها عن تلك التي قامت على المفهوم الأول ، التاريخي ، والتي خصص لها مصطلح «المقارنة» . مع ملاحظة أن هذين المفهومين معا تداخلا إلى حد بعيد في كثير من الأعمال التي وقف البحث عندها ، دون حدود واضحة .

ولقد وجد البحث أن هذا الاهتمام المبكر من المثقفين العرب بقضية «المقارنة» ، حتى قبل أن ينشأ «علم» الأدب المقارن رسمياً آخر القرن التاسع عشر - كان طبيعياً ، لعاملين ؛ أحدهما ذاتي ، ناشئ عن طبيعة الدور الذي دفعهم - دائماً - إلى التساؤل عما عند الآخرين و«كان» عندنا وأضعناه ، أو هو عندهم ولم يكن عندنا ونحتاج إلى استكماله . وكانت «المقارنة» هي السبيل الوحيد لمحاولات الإجابة عن هذه التساؤلات ، بما يكشف عن «الحقيقة» ، من جهة ، ويمتصّ الشعور بالدونية والهزيمة ، من جهة أخرى .

أما العامل الآخر فكان ثقافياً ؛ فقد كان القرن التاسع عشر كله «قرن المقارنة» في العلوم جميعاً ، الطبيعية والإنسانية ، وتوج - في نهايته - باعتماد «الأدب المقارن» منهجاً علمياً في الجامعات الفرنسية . وكان المثقفون العرب - همد الطهطاوي - على اتصال وثيق بما يدور في الحياة الثقافية الفرنسية - بخاصة - والأوربية بعامة حول هذه الموضوعات جميعاً ، سواء منها المناقشات النظرية أو الأعمال التطبيقية . وطبيعي ألا يدعي البحث لهذه المحاولات المبكرة العلمية الكاملة ، أو حتى القرية من الكمال .

أولاً ، لأن كثيراً من الأعمال التي تعرض البحث لها لم تكن مخصصة بكاملها ، أو حتى بأجزاء منها لموضوع ، لهذه المقارنات أو المقابلات . فثمة ثلاثة أعمال على وجه التحديد - ليعقوب صرّوف ونجيب الحدّاد وأديب إسحق - قائمة - أصلاً - على الموضوع . أما بقية الأعمال فملاحظاتهما المتصلة بالموضوع متناثرة على مساحات واسعة من كتب مخصصة لموضوعات قد لا تتصل بموضوعنا إلا من بعيد .

وثانياً ، لأن كثيراً من هذه الأعمال - إن لم يكن كلها - لم يكن ناتجاً عن اهتمام

علمي «أكاديمي» بهذه الموضوعات ، وإنما كان اهتمامهم بالموضوع ابناً شرعياً لاهتماماتهم الثقافية العامة ، وجزءاً منها . ولهذا جاء ما يتصل بموضوع هذا البحث منها ، أقرب إلى «الملاحظات» العامة ، السريعة في بعض الأحيان . ومن ثم ، فلم يكن غريباً أن تأخذ الأعمال الثلاثة المخصصة للمقابلة أو المقارنة صورة محاضرة عامة أو مقالات ، وتأخذ الأعمال الأخرى صورة كتب ثقافية عامة . ويستثنى من هذا - إلى حد كبير - كتاب الخالدي ومقدمة البستاني ، من حيث ينصب اهتمام الكاتبين على قضايا وموضوعات أدبية بالدرجة الأولى .

وسو طبعي ، ثالثاً ، لأن العلم نفسه - الأدب المقارن - كان في مرحلة النشأة ، وطبعي أنه لم يكن قد تبلور بعد وسلك سبيله المستقيمة ، بل كان خاضعاً لاجتهادات شتى ؛ الأمر الذي يجعل إبراز جهود المثقفين العرب في هذه المرحلة من نشأة العلم والمناقشات التي تدور حوله ، محاولة مشروعة ، وإن جانب هذه الجهود قدرٌ لا بأس به من «العلمية» .

ومع هذا ، فقد أدت هذه الجهود و«الملاحظات» دوراً في منتهى الأهمية ، فيما يتصل بتطوير الأدب العربي الحديث ، سواء بتبصر هذا الأدب بعيوبه الذاتية ونقاط ضعفه أو بفتح آفاق جديدة له ، بالتعريف بفنون أدبية لم يكن له عهد بها ، كالقصة والمسرحية والملحمة ، وبسط أفكار جديدة ، وموضوعات ، ومدارس أدبية .. إلخ ، كانت كلها جديدة عليه ؛ الأمر الذي مهد بقوة - ضمن عوامل أخرى - لخروج هذا الأدب من القوقعة التي ظلّ منغلّقاً على نفسه فيها لأزمة متطاولة .

ويمكن القول - أخيراً - إن هذا البحث لم يقل الكلمة الأخيرة ، حتى في المساحة الزمنية التي تحرّك فيها (١٨٣١ - ١٩٠٤) . وتبقى مساحة أخرى - تستغرق النصف الأول كلّ من القرن العشرين - في حاجة إلى مزيد من الجهد لتغطية ما شهدته من جهود ، وتستكمل ما بدأه أساتذة كرام ، في مصر وخارجها ، من الوقوف عند بعض هذه الجهود الرائدة .

والله من وراء القصد ،



المصادر والمراجع

أ . عامة :

- القرآن الكريم .

- الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس بالقاهرة .

- دائرة المعارف الإسلامية ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٩ .

ب . المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

- د. إبراهيم عبد الرحمن محمد : النظرية والتطبيق في الأدب المقارن ؛ دار العودة ،

بيروت ١٩٨٢ .

- أحمد بن الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار قائلها، المطبعة الرحمانية ١٣٣٨هـ.

- أحمد شوقي : الشوقيات ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، د. ت.

- د. أحمد كمال زكي : الأدب المقارن ؛ دار العلوم ، الرياض ١٩٨٢ .

- د. أحمد كمال زكي : الأساطير ، دراسة حضارية مقارنة ؛ ط. ثانية ، دار كليوباترا ١٩٨٢ .

- د. أحمد محمد البدوي : أوتار شرقية في القيثار الغربي ؛ منشورات جامعة قار يونس ، ليبيا ١٩٨٩ .

- إدوارد سامي سبانخ : نجيب الحلدّاد المترجم المسرحي ؛ معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٦ .

- أديب إسحق : الدرر ، وهي منتخبات الطيب الذكر ، الخالد الأثر أديب إسحق ؛ جمعها جرجس ميخائيل نحاس ، وطبعت بنفقة جامعها وخلييل أفندي

النقاش . مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية ١٨٨٦ .

: أديب إسحق ؛ الكتابات السياسية والاجتماعية ، جمعها وقدم لها

ناجي علوش ؛ دار الطليعة ، ط. ثانية ، بيروت ١٩٨٢ .

- بينار : تاريخ المسرح ، ترجمة أحمد كمال يونس ، الألف كتاب ٣٩٤ ؛ دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٣ .

- توفيق الحكيم : الملك أوديب ، مكتبة الآداب بالجماميز ، القاهرة ١٩٧٧ .

- الجاحظ ، أو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ؛ مكتبة الخانجي ، ط. خامسة ١٩٨٥ .

: الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ؛ مكتبة مصطفى البابي الحلبي
بمصر ، ط. ثانية د. ت.

جرحي زيدان : العرب قبل الإسلام ، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس ؛ دار الهلال
بالقاهرة د. ت.

: تاريخ آداب اللغة العربية مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف ؛ دار
الهلال بالقاهرة د. ت.

: فيكتور هيكو (مقال) ؛ مجلة الهلال ، الجزء العاشر من السنة الأولى -
يونيو ١٨٩٣ .

: أبو العلاء المعري - ٩ رسالة الغفران (مقال) ؛ الهلال ، الجزء
الأول من السنة الخامسة عشرة - أكتوبر ١٩٠٧ .

- در بيني خشبة : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، كتاب الهلال ، يونيو ١٩٦٥ .
- د. رشدي حسن : أثر المقامة في القصة العربية الحديثة ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٤ .

- ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ط. خامسة ١٩٨١ .

- رفاعة رافع الطهطاوي : تحليل الإبريز في تلخيص باريز ، ط. مصورة عن طبعة
١٩٥٧ (تحقيق د. مهدي علام وآخرين) . الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٩٣ .

- رفاعة رافع الطهطاوي : الأعمال الكاملة - المجلد الخامس - تحقيق د. محمد عمارة .
المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٧٣ .

- رينيه ويلك : مفاهيم نقدية ، ترجمة د. محمد عصفور ؛ عالم المعرفة ، الكويت فبراير
١٩٨٧ .

- د. سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ؛ دار الكاتب
العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

- سامي الكيالي : مع طه حسين ؛ دار المعارف ؛ اقرأ ٣٧٥ ، نوفمبر ١٩٧٣ .

- د. شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ؛ دار المعارف ١٩٦١ .

- د. شوقي ضيف : البحث الأدبي ؛ دار المعارف ، ط. رابعة د. ت.

- د. شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ؛ دار المعارف ، ط. تاسعة د. ت.

- د. صلاح فضل : تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية ؛ دار المعارف بالقاهرة

١٩٨٠ .

د. الطاهر أحمد مكى : الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه ؛ دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧ .

- عادل مناع : أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ - ١٩١٨) ؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ط. ثانية ١٩٩٥ .

- عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعربين ؛ المكتبة الثقافية (١) ؛ دار القلم ، القاهرة د . ت .

- عبد الحى دياب : التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ؛ دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨ .

- عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ، ط . ثالثة د. ت .

- عبد الرحمن صدقي : الشرق والإسلام في أدب جوته ؛ المكتبة الثقافية - ١٠ ؛ دار القلم بالقاهر د. ت .

- د. عبد العزيز الدسوقي : تطور النقد العربي الحديث في مصر ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

- د. عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي الحديث ؛ النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ .

- د. عبد الوهاب عبد الوهاب فايد : الدخيل في تفسير القرآن الكريم ؛ مطبعة حسان، القاهرة ١٩٨٧ .

- عز الدين الأمين : نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، نهضة مصر بالفجالة القاهرة ١٩٦٢ .

- د. عصام بهي : الكتابات الأولى عن المسرح في تراثنا الفكري (بحث) ؛ مجلة المسرح ، أغسطس ١٩٩٢ .

- أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ؛ دار المعارف . ١٩٦٣ .

- أبو العلاء المعري : الزوميات ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦١ .

- د. علي عبد الواحد وافي : علم اللغة ؛ نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة ١٩٧٢ .

- علي مبارك : علم الدين ؛ ط. مصورة عن الطبعة الأولى (١٨٨٢) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ .

- علي نور : ملامح مصرية في المسرح الإغريقي ؛ دار الكاتب العربي ، القاهرة د.ت.
- د. عماد حاتم : مدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية ؛ الدار العربية للكتاب ، طرابلس - ليبيا ١٩٨٤ .

- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ؛ دار إحياء التراث العربي ، بيروت د.ت .
عيسى ميخائيل سابا : يعقوب صرّوف ؛ دار المعارف (سلسلة نوابع الفكر العربي
٣٧) القاهرة ، ط.ثانية ١٩٨٠ .

- فاروق خورشيد ومحمود ذهني : فن كتابة السيرة الشعبية ؛ منشورات اقرأ ، بيروت ١٩٨٠ .

- فاروق خورشيد : فن الرواية العربية - عصر التجميع ؛ الدار المصرية للطباعة والنشر، الإسكندرية د.ت.

- الفردوسي : الشاهنامة ، ترجمة أبي الفتح البنداري ، تحقيق د. عبد الوهاب عزام .
نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ .

- فنيلون : مغامرات تليماك ، ترجمة عادل زعير ؛ دار المعارف بمصر ١٩٤٩ .
- فون دير لاين : الحكاية الخرافية ، ترجمة د. نبيلة إبراهيم ؛ نهضة مصر ، د.ت .
- كوملان ، ب : الأساطير الإغريقية والرومانية ، ترجمة أحمد رضا ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ .

- د. محمد برادة : تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوجو (بحث نقوش
في ندوة : قراءة جديدة لتراثنا النقدي ، ونشر في أعمالها) ؛ النادي
الأدبي بمجدة ١٩٨٨ .

- محمد بن سلام الجهمي : طبقات الشعراء ، تحقيق يوسف هل ، ط. مصورة عن
الطبعة الأولى (أبريل ١٩١٦) دار النهضة العربية ، بيروت د.ت.

- د. محمد عبد الحفي : البنفسحة والبتقة : الترجمة ولغة الشعر الرومانسي العربي ،
ترجمة : عصام بهي ؛ فصول مج ٣ ع ٤ ، يوليو - سبتمبر ١٩٨٣ .

- د. محمد عبد المعيد خان : الأساطير والخرافات عند العرب ؛ دار الحداثة ، بيروت ١٩٨١ .

- د. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ؛ نهضة مصر ، د.ت .
- د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ؛ نهضة مصر ، د.ت .
- د. محمد محمد أبو شهبة : الأسرائليات والموضوعات في كتب التفسير ؛ مجمع
البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٤ .

- د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه ؛ نهضة مصر ، د. ت.
- د. محمد مندور : الكلاسيكية والأصول الفنية للدراما : نهضة مصر د. ت.
- د. محمد مندور : الفن التمثيلي - ١ - المسرح ؛ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣ .
- د. محمد يوسف نجم : المسرح العربي دراسات ونصوص - ٦ - نجيب الجداد ؛ دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ .
- محمود طرشونة : مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة ؛ تونس ١٩٨٦ .
- مصطفى السقا وآخرون : شروح سقط الزند ؛ المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٤ .
- مصطفى لطفي المنفلوطي : مختارات المنفلوطي ؛ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة د. ت .
- المقدسي (روحي بك الخالدي المقدسي) : تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوكو ، مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٤ .
- (أعاد د. حسام الخطيب نشر الطبعة الثانية من الكتاب (١٩١٢) مع المقدمة العربية التي كتبها جرجي زيدان والمقدمة الفرنسية التي كتبها الخالدي نفسه ، وقدم هو لها بدراسة ، وصدر الكتاب عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، دمشق (١٩٨٤).
- منيف موسى سليمان : سليمان البستاني في حياته وفكره وأدبه ؛ دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٨٤ .
- ميلتون ، جون : الفردوس المفقود ، ترجمة د. محمد عناني (جزءان) ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ، ١٩٨٦ .
- د. ناصر الدين الأسد : محمد روجي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين ؛ معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ناصيف اليازجي : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ؛ دار القلم ، بيروت د. ت.
- د. نجيب البهيتي : المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ ؛ دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨١ .
- د. هاشم ياغي : حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين ؛ معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ .

- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، قدّم لها وعلق عليها
وضبطها طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة
د.ت.

- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ؛ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩١ .
- يعقوب صروف : شنور الإبريز في نوابغ العرب والإنكليز (ثلاث مقالات) ؛
المقتطف ، الأجزاء ٧ - ٩ (نيسان / أبريل ، أيار / مايو ، حزيران /
يونية) من السنة العاشرة ١٧٧٦ .

ج - مراجع أجنبية :

- BERTHON , H. E, Nine French Poets 1820 - 1880 , Mac millan & Co. Ltd, New
York, 1957 .
- Cuddon, J. A. Dictionary of Literary Terms; Penguin Books; London, 1982 .
- Graves, Robert; The Greek Myths; Penguin Book; London, 1980.
- Homer; The Iliad; Translated by E.V. Rieu; Penguin Books; London, 1980 .

